مجلة كلية الآداب بقنا (دورية أكاديمية علمية محكمة)

رائق التحلية فى فائق التورية

لأبى جعفر أحمد بن خاتمة الأنصارى الأندلسى

تقديم وتحقيق :
د. سوليداد خيبرت فنيش – جامعة الكمبلوتنسى – مدريد
تعريب ودراسة :
د. منى ربيع بسطاوى – جامعة جنوب الوادى – قنا

أبحاث

رائق التحلية فى فائق التورية

لأبى جعفر أحمد بن خاتمة الأنصارى الأندلسى

تقديم وتحقيق : د. سوليداد خيبرت فنيش – جامعة الكمبلوتنسى – مدريد (*)
تعريب ودراسة : د. منى ربيع بسطاوى – جامعة جنوب الوادى – قنا

كان من بين الأعمال التى حُفظت للشاعر والمؤرخ المريىّ " أحمد بن أبو جعفر بن خاتمة الأنصارى " المتوفى سنة (٧٧٠هـ = ١٣٦٨م) [١] هذا الديوان الذى يحتوى على هذه المجموعة الشعرية التى تلقاها سماعًا عنه تلميذه أبو جعفر أحمد بن محمد بن زرقالة ، وقام بجمعها فى كتاب .

وكنت قد نشرتُ مقالاً عن هذا الموضوع مع عمل دراسة حول مضمونه نُشر فى المجلد الثانى من مجلة " دراسات مشرقية " والذى أهدى إلى ذكرى العالم الفرنسى ليفى بروفنسال ، وعنوانه " رائق التحلية فى فائق التورية " .

وهذا الديوان يحتوى على مجموعة من المقطوعات الشعرية القصيرة لابن خاتمة ، بلغ عددها ست وستين مقطوعة ، كان ابن خاتمة يضمنها أحيانًا – بعض النوادر والمواقف التى كانت لها علاقة بلحظة " الإبداع " أى لحظة نظمه لهذه

(*) د. سوليداد خيبرت فنيش : شغلت كرسى الأدب العربى فى كلية الآداب – جامعة الكمبلوتنسى بمدريد ، امتدت أبحاثها إلى جوانب عديدة من التراث الأندلسى ، فنشرت عددًا من المخطوطات ، وترجمت إلى الإسبانية بعضًا من مصادره .

- وهى أول من درست ديوان ابن خاتمة المريىّ ، دراسة مستوعبة ، ونشرته فى قسم اللغة العربية والإسلامية فى كلية اللغات ، جامعة برشلونة ١٩٧٥م ، وقد قام الدكتور الطاهر مكى بترجمة هذا العمل إلى العربية بعنوان : " ابن خاتمة شاعر أندلسى من القرن الرابع عشر الميلادى " ، انظر : د. الطاهر مكى وكتابه : الأدب الأندلسى من منظور إسبانى ص ١٦٣ – ص ٢١٣ ، طبعة مكتبة الآداب ، القاهرة ، ١٩٩٠م .
- ولمعرفة المزيد عن سوليداد انظر : " دراستنا حول " دور المستشرقين الإسبان فى الدراسات الأندلسية ، وسوليداد خيبرت أنموذجًا ، مجلة كلية الآداب فى قنا العدد السادس عشر ، الصفحات من ص ٢٨٤ – ص ٣١٠ ، ٢٠٠٥م .
- كتبت هذه الدراسة المستشرقة الإسبانية سوليدات خيبرت فنيش ، الأستاذة بكلية الآداب بجامعة مدريد ، مقدمة لتحقيقها وترجمتها لكتاب " رائق التحلية فى فائق التورية " ، ونشره المعهد المصرى للدراسات العربية والأندلسية بمدريد ، مدريد ، ١٩٨٣م .

(١) حول ابن خاتمة هذا الأديب اللامع فى البلاط الناصرى ، قمت بدراسة موسعة عنه فى مقدمة ديوانه الذى نشرته جامعة برشلونة ، ١٩٥٧م ، ولقد كان ابن خاتمة شاعرًا ، ومؤرخًا ، وطبيبًا مرموقًا ، وأسلوبه الأدبى لا يخرج عن سمات عصره وهى فترة كان يغلب فيها على أسلوب الكتابة المبالغة فى استخدام التعقيدات الأسلوبية واللغوية ، وفى أحيان كثيرة كان يغلب عليها الغموض اللغوى ، وقد نظم ابن خاتمة عدة موشحات تضمنها ديوانه الشعرى ، ويعد ابن خاتمة رائدًا من رواد استخدام الصناعة اللفظية والصيغ اللغوية الغريبة ، وهذه المجموعة الشعرية هى واحدة من أكبر الأدلة عليها ونموذج منها .

الأشعار، أو كالتى لها علاقة بحياة المؤلف نفسه كانت بعض هذه النوادر ذائعة ومشهورة ، والبعض الآخر منها غير معروف .

وقد احتوى هذا الديوان على قدر وافر من الأشعار التى تضمنت محسنات بديعية عُرفت فى علم البلاغة باسم " التورية " ، وهى تقابل " المعنى المعنوى " والتى كان يتنافس على إتقانها العديد من الشعراء المشهورين سواء كانوا فى المشرق أو المغرب .

ولقد اعتمدتُ فى هذه الدراسة على مخطوطتين ، الأولى منهما محفوظة فى مكتبة دير الإسكوريال بمدريد ، أما الثانية فهى محفوظة فى المكتبة الوطنية بباريس .

كما توجد نسخة ثالثة فى مكتبة الخزانة العامة بالرباط تحت رقم (١٨٢٦ فى فهرس ١٩٥٨) ، وهذه النسخة لم أتمكن من الاطلاع عليها ، ولكن حسب المعلومات التى توفرت لدىّ من الصديق د. محمد بن شريفة أن هذه النسخة أقل قيمة من مخطوطة الإسكوريال ، وربما كانت صورة منها .

وتشكل مخطوطة الإسكوريال ، الجزء الكبير من المخطوطة التى وردت فى فهرس ديرنبورج تحت رقم (٤١٩) ، والتى تحتوى على مجموعة شعرية لأحمد بن محمد السلمى المنصورى العائم (ت ٨٨٧هـ = ١٤٨٢م) .

أما المجموعة الشعرية التى نقدم لها فى هذا العمل فهى تشكّل أول ثمانى ورقات من مخطوطة الإسكوريال ، وقد كُتبت بخط مغربى واضح ، على الرغم من زوال وضعف الحبر فى كلمات عديدة وربما ذلك بسبب عوامل الزمن ، إلا أن جميع الكلمات التى وردت بالمخطوطة كانت مضبوطة بالشكل ، وهذه النسخة فيما يبدو عليها قد كتبها شخص واحد ، وقد ظهر فى الجزء العلوى من الصفحات آثار لبقع وعلامات صغيرة ربما ظهرت بسبب عامل الرطوبة ، مما تسبب فى صعوبة القراءة بالنسبة لنا .

وتأتى الورقة الأخيرة من هذه المخطوطة وقد أطلعنا فيها الناسخ على اسمه وهو : " جعفر بن مشتمل الأيلى " وقد أشار إلى أنه انتهى من نسخها فى (الخامس عشر من جمادى الأولى من سنة ٧٦١هـ = ١٣٥٩م) كما ظهر فى مقدمة هذه المخطوطة اسم من كان يمتلكها وهو : الأمير عبد العزيز أبو فارس .[1]

وتوجد فى أسفل المقدمة فى الورقة الأولى من المخطوطة (إجازة = *Ijaza*) وهى على ما يبدو كتبها المؤلف الأصلى لهذه الأشعار .

أما بالنسبة للخط ، فهو يشبه إلى حد كبير ، شكل الخط الذى وجدناه فى ديوان ابن خاتمة وهو مكتوب بخط المؤلف نفسه ، وكما يبدو عليه أنه كُتب بغير عناية ، أو ربما كُتب بشكل سريع ، كما أن لون الحبر لم يتضح ويبدو باهتًا ، وكانت الورقة مليئة بالبقع مما شكّل لنا صعوبة كبيرة فى قراءتها ، وربما استحالة القراءة فى بعض السطور ، ونصها كالتالى :

" كتاب رائق التحلية فى فائق التورية " جمع عبد الله الراجى رحمته الفقير إليه أحمد بن محمد بن على بن أحمد بن على بن أحمد بن محمد بن على بن الإمام أحمد بن على بن زرقالة لطف الله تعالى به .

---

(١) هو السلطان الحفصى المشهور بأبى عبد العزيز ، ت : (٧٣٦هـ = ١٣٦١م) = (٨٣٧هـ = ١٤٣٣م) ، كان سياسيًا لامعًا ومحاربًا ، وراعيًا كبيرًا للعلم .

والخط فى هذه الصفحة غير واضح ، ومن الصعب قراءته ، أما الخط فى أعلى الصفحة من الجهة اليسرى فقد ظهر بشكل متقطع ، وبالرغم من ذلك يمكنك قراءة التالى : " تملك هذا الكتاب عبد الله أبو فارس أمير المؤمنين من الخلفاء الراشدين لطف الله به بمولانا محمد صلى الله عليه وسلم " .

أما عن مخطوطة باريس ، فهى تشكل جزءًا كبيرًا من النسخة التى احتوت أوراقها الأولى على نص رسالة صغيرة من عمل ابن خاتمة نفسه وهى بعنوان " الفصل العادل بين الرقيب والواشى والعاذل " [١] والتى قمت بنشرها وترجمتها إلى الإسبانية فى مجلة الأندلس العدد رقم (١٨) لسنة ١٩٥٤م (من ص١ – ص١٦) ، وقد اشتملت على ثمانى ورقات من (ص٧ – ص١٥) ، والتى صنفها " بلوشيه " فى فهرس المخطوطات العربية ، وهذه المخطوطة تمكنا من الحصول عليها أخيرًا ، ولقد صُنفت تحت عنوان مجموعة شعرية لأبى جعفر أحمد بن زرقالة ، وهذا هو العمل الذى سوف نتناوله ونقدم له ، كذلك يوجد فى نهاية المخطوطة نسخة من كتاب الكتيبة الكامنة لشعراء المائة الثامنة للسان الدين بن الخطيب ، وقد صنفت تحت رقم (٥٧٩٤) .

أما فيما يختص بالخط لمخطوطة باريس ، فقد كُتبت المخطوطة بخط مغربى ، وظهرت الكلمات والكتابة متلاصقة ، وجاءت الهوامش مليئة بأشعار لموضوعات متشابهة ، كما أكثر المؤلف من استخدام توريات تكاد تكون متشابهة أيضًا فى معظمها .

غير أن هذه الأبيات تُركت بدون التعليق عليها ، وأما فيما يختص بالأبيات الشعرية الأخرى ، فقد جاءت غير واضحة ، ومعظمها كان مطموسًا ويصعب قراءته ، وقد أشار ابن خاتمة إلى بعض الشعراء فى هذه المخطوطة ولم يشر إلى البعض الآخر .

وتضمنت المخطوطة أبياتًا لأحمد بن جابر الأندلسى [٢] ، وابن السجستانى [٣] ، وابن حجر [٤] ، وشاعر آخر يمكننا التعرف عليه من خلال لقبه الغرناطى على أنه – ربما – يكون المقصود به الشريف الغرناطى . [٥]

كان من الصعب علينا قراءة الورقة الأولى من المخطوطة على الإطلاق ، فيما عدا سطرًا واحدًا ورد فى أعلى الصفحة تستطيع أن تقرأ هذه الجملة ،

---

(١) هى رسالة صغيرة ، فى أسلوب مسجوع ، للتمييز بين أعداء العشاق " الرقيب والواشى والعاذل ، ومخطوطة هذه الرسالة توجد فى باريس ، تلى مخطوطة ديوان ابن خاتمة الشعرى التى تحمل رقم (٥٧٤٩) . وقد نشرت د. سوليداد خيبرت هذه الرسالة ، وترجمتها إلى الإسبانية ، فى مجلة الأندلس ، المجلد ١٨ ، ١٩٥٤م ، والصفحات من ص١ ـ ص١٦ . (المترجمة) .

(١) يرجع إلى ترجمته ابن عبد الله محمد بن جابر الهوارى من المرية ، المعروف باسم " ابن جابر الأعمى " والذى يخلط بينه وبين ابن جابر الوادى آشى رقم (١٣٤٣) ، وحول هذا الخلط تحدث د. خوسيه ماريا فوريناس " فى برنامج محمد الوادى آشى فى مجلة الأندلس العدد (٣٨) ١٩٧٣م ، (من ص١ – ص٢٦٧) . وأما عن جابر الهوارى ، انظر : نفح الطيب : جـ١٠/ ص١٦٢ – ص٢٠٣ ، وأزهار الرياض : جـ١/ ص ٢٣ ، والإحاطة : ص ٣٣٠ – ص٣٣٣ .

(٣) لم استطع التعرف عليه .

(٤) هو أبو الفضل أحمد بن على المعروف بابن حجر العسقلانى مؤلف الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة (ت: ٨٥٢هـ = ١٤٤٨م) .

(٥) هو الشاعر المشهور وشارح القصيدة المقصورة للقرطاجنى .

[بل التأليف لأبى جعفر بن زرقالة] التى سببت لنا خلطًا كبيرًا حول ناظم هذه الأشعار ، وهو ابن خاتمة وليس ابن زرقالة الذى كان جامعًا فقط لتلك الأشعار .

عند النظر فى الأبيات الشعرية الواردة فى مخطوطة باريس ، وجدنا أنها هى نفس الأبيات التى وردت فى مخطوطة الإسكوريال ، وإن كانت المخطوطة الأخيرة ينقصها وجود اسم الناسخ ، كما لم يظهر فيها تاريخ النسخ .

فى دراستى التى أشرت إليها من قبل ، والتى نُشرت فى مجلة " دراسات مشرقية " والمهداة لذكرى ليفى بروفسال ، حاولت أن أجد علاقة ما بين الشخصيات التى أوردها ابن زرقالة ، والشخصيات التى تم تعيينها فى مصادر أخرى وهى عديدة إلا أنه – ووفقًا للتواريخ – لم نستطع التعرف على أيٍ منهم على أنه هو ناظم هذه الأشعار ، وإن كانوا فى معظم ينتمون لعائلات مشهورة فى ألموية ، وكانوا – دون شك – على اتصال به " .[1]

يرجع استخدام التورية أو اللفظة التى تحمل أكثر من معنى إلى زمن بعيد ، أى أنها ترجع إلى زمن متأخر ، وكان أول من استخدمها هو " أسامة بن منقذ " (ت : ٥٨٤هـ = ١١٨٨م) فى كتابه " البديع " ، ثم الفارسى رشيد الدين الوزواز (ت : ٥٧٨هـ = ١١٨٢م) فى كتابه " حدائق الشجر فى دقائق الشعر " الذى يعرف بالإيهام .

ومن بين المؤلفات البلاغية التى كانت تدّرس باهتمام كبير ، كتاب " خزانة الأدب " لابن حجة الحموى (ت : ٨٣٧هـ = ١٤٣٤م) ، وكتاب الصفدّى المعروف " بفض الختام فى التورية والاستخدام " والذى أجرى دراسة ممتازة عنه البروفيسور *S. A. Bonebakker* فى جامعة كولومبيا .[2]

وفى دراستى التى أشرت إليها سابقًا ، والتى تتعلق بكتاب : " رائق التحلية فى فائق التورية " انصب اهتمامى فيها على تعريف لفظة أو مصطلح التورية ، والوقوف عند أنواعها .

وفى هذا العمل سأحاول أن أقتصر وبشكل موجز على التعريفات والشروح التى أعتقد أنها ضرورية ، ولا غنى عنها لفهم العمل بصورة أدق وأوضح ، ونبدأ بابن حجة الحموى الذى خصص فصلاً كاملاً لهذه الصورة البلاغية ، فى كتابه " خزانة الأدب " وقد تضمن هذا الفصل أبياتًا شعرية متنوعة للعديد من الشعراء الذين استخدموا التوريات فى شعرهم .

وكان من بين هؤلاء الشعراء عدد لا يستهان به من شعراء الأندلس ، من أمثال : لسان الدين بن الخطيب ، ابن جابر بن عبد الله الغرناطى ، محى الديى بن حيان الشاطبى .[3]

---

(١) د. سوليداد خيبرت فنيش : مجموعة التورية لأبى جعفر بن أحمد بن خاتمة فى مجلة " دراسات إستشراقية " مهداة لذكرى ليفى بروفنسال ، العدد الثانى ، ص ٥٤٣ – ص ٥٥٧ ، باريس ، ١٩٦٢م .

(٢) انظر : *S. A. Bonebakker* : بعض تعريفات التورية فى كتاب الصفدّى : فض الختام عن التورية والاستخدام ، طبعة باريس ، ١٩٦٦م .

(٣) ابن حجة الحموى : خزانة الأدب : ص ٢٣٩ .

أما عن تعريف ابن حجة للتورية : فهى تقوم على أن تستخدم الكلمة بمعنيين حقيقيين ، أو أحدهما حقيقى ، والآخر مجازى ، وواحد منهما قريب ، والآخر بعيد ، وهى التى تجعل المستمع يعتقد أو يظن بأن هذا هو مقصد المتكلم مع أنه فى الحقيقة هو غير ذلك وعلى العكس تمامًا .

فابن حجة يقول : " إن أساس التورية أن تكون الكلمة محتملة لمعنيين ، ويستعمل المتكلم أحد هذين الاحتمالين ويهمل الآخر ، ومراده ما أهمله لا ما استعمله " . (١)

أى أن التورية تقوم على معنيين لكلمة واحدة ، يجب أن تؤدى إلى تفسرين مختلفين كليهما ممكن ومحتمل ومقبول ، فإذا لم تكن كذلك فإن التورية تعتبر ناقصة وهذه الكلمة ذات الدلالة المزدوجة تستعمل فى الشعر والنثر .

أما فى الشعر فيمكن استخدامها فى أى جزء من القصيدة ، وإن كان من الأفضل أن تكون فى نهاية البيت .

كما يمكن استخدام التورية فى الأسماء الأكثر شيوعًا ، أو أسماء الأشخاص وكذلك يمكن استخدامها فى الصفات أو الأفعال ، فالتورية هى وجه بلاغى يقوم على تعدد المدلول حقيقة كان أم مجازًا فى الدال الواحد فالمتكلم يستغل الاشتراك القائم فى القاموس ويجريه فى الكلام ، ومعيار التمييز بين المعنى المراد والمعنى البعيد هو المقام ويمكن صياغة ذلك فيما يلى :

١- المدلول (قريب) ويعادل المورى به / لا يلائم المقام -> ملغى
٢- المدلول (بعيد) ويعادل المورى عنه / يلائم المقام -> مقبول (مقصود)

وهناك كلمات مساعدة تدفعنا إلى التفكير فى معنى واحد أو أكثر من هذه المعانى يسمى لازم والجمع لوازم .

ويمكن تقسيم التورية إلى أربعة أنواع :

١- المجردة : وقد سُمِّيت المجرة لتجردها من لازم لوازم المورى به وهو (المعنى القريب) ، ومن لازم المورى عنه وهو (المعنى البعيد) . أى هى التى لا يوجد بها أى لازم للمعنى سواء أكان المعنى قريبًا أم بعيدًا .
٢- المرشحة : وهى التى تحتوى على لازم أو أكثر للمعنى القريب ، أى هى التى يذكر فيها لازم المورى به ، وهو المعنى القريب .
٣- التورية المبيِّنة : ويذكر فيها لازم المورى عنه قبل لفظ التورية أو بعده . أى هى التى تحتوى على إحدى لوازم المعنى البعيد ، والذى يكون قبل التورية أو بعدها .
٤- التورية المهيأة : هى التى تتهيأ بلفظ قبلها أو بعدها (أو بألفاظ) ، أو تكون التورية فى لفظين لولا كل منهما لما تهيأت التورية فى الآخر .

وقد أورد ابن حجة فى كتابه المشار إليه ، العديد من الأمثلة لكثير من الشعراء، كما أشار إلى ما كان بين هؤلاء الشعراء من علاقات طيبة .

---

(١) المرجع نفسه .

ويعد ابن حجة والصفدى من أشهر علماء التورية اللامعين ، فلقد أمدونا بالعديد من الأمثلة من خلال تلك الخصومات أو المنافسة التى كانت بينهما ، غير أن كليهما يتفق على أن الشاعر المصرى " أبو على عبد الرحيم " المعروف بالقاضى الفاضل (ت ٥٩٥هـ - ١٢٠٠م) كان من أوائل الشعراء الذين استخدموا التورية ، وكان نموذجًا يحتذى به الآخرون فى هذا المضمار .

يبدو أن استخدام التورية يرجع إلى منذ زمن بعيد ، فقد ظهرت التورية أول ما ظهرت فى القرآن الكريم ، كما استخدمها الشعراء الجاهليون قبل الإسلام .

ولما كانت التورية تقوم على إخفاء المعنى الحقيقى للكلمة ، فإن النية الحقيقية التى يُقيم عليها الشاعر أبياته الشعرية ، تجعلنا فى كثير من الأحوال نجد صعوبة فى ترجمتها ، فعندما يتحدث الشاعر عن معنيين محتملين ، فلا ندرى أيهما سيكون فى الحقيقة المعنى المستتر (المضمر) وأيهما سيكون المعنى الظاهر ؟

ففى بعض الأحيان يمكن معرفة المعنى فى وضوح وجلاء ، ولكن فى أحيان أخرى من الصعب التعرف عليه ، فهذا الغموض قد يجعل الشاعر أو المؤلف يغير الغرض الذى جاء من وراء هذه الكلمات ، وهذا التلاعب بالألفاظ عادة ما يستعمله الشاعر أو الأديب للوصول إلى أهداف معينة .

ومن ناحية أخرى إن من أهم الدوافع التى يرمى إليها الشاعر من وراء استخدامه لمثل هذه التوريات هو إظهار عبقريته وسعة ثقافته ، أضف إلى ذلك رغبة الشاعر فى إخفاء أو حجب شىء يهمه بألاّ يُعْرَف هذا الشىء بوضوح ، فيحاول البحث عن مخرج فيلجأ إلى تفسير آخر ولابد أن يكون هذا التفسير مقبولاً ومقنعًا فى نفس الوقت .

إن ملكة نظم أشعار فى التورية ، احتفظت بها كتب الأدب العربى عبر عصوره المختلفة فى المشرق والمغرب ، وهذه الملكة – اكتسبت دون شك – تطورًا خاصًا خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين .

فهناك العديد من الشعراء المشارقة والمغاربة عندما كانوا يريدون أن يظهروا تمكنهم من اللغة أمام السامع أو المتلقى ، كانوا يلجأون إلى استخدام معانى مختلفة لكلمة ما . أو يضمنون أبياتهم بأبيات شعرية ذات معانى مختلفة لشعراء آخرين مشهورين .

ويعد هذا نوعًا من التلاعب بألفاظ اللغة ، وهو فى الغالب يتطلب من الشعراء وجمهور المتلقين على السواء ثقافة واسعة وذوقًا خاصًا ، لأن الشعر فى هذه الحالة لا يقدم لعامة الناس ، وإنما هو شعر يُقدم لقلة من الخاصة .

وفى الكتاب الذى أشرت إليه من قبل ذكرت أسماءً لشعراء بارزين كانوا يستخدمون هذه التوريات فى أشعارهم من شعراء الأندلس ، من أمثال : لسان الدين بن الخطيب ، وابن جابر ، والشريف الغرناطى ، ومحمد بن جُزى ، وآخرين من الشعراء المشهورين والمرموقين مثل : " أبى البركات البليفيقى ، وأبى القاسم

عبد الله بن رشوان ، وأبى جعفر الإلبيرى ، وأبى عبد الله الأزرق الوادى آشى وغيرهم، وفى كتاب نفح الطيب للمقرّي نجد العديد من الأمثلة على ذلك ، وبخاصة لشعراء من القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين ، وهم الشعراء الذين كانوا يتكلفون فى أشعارهم .

ومن الملاحظ أن الكلمات التى استخدمت كتورية فى هذا الكتاب كانت تدور فى الغالب حول تعبيرات خاصة وفى موضوعات بعينها .

وعند دراستنا لديوان ابن خاتمة وجدناه ، أنه استخدم فيه جميع أنواع التورية، وإن كنا نلحظ أنه كن يميل إلى استخدام الألفاظ والمفردات التى لها علاقة بالعلوم النحوية ، واللغوية ، والأدبية ، وهذا يدل على سعة اطلاعه وثقافته العالية .

كما اهتم فى أعماله بشكل عام بكثرة استخدام التورية التضمينية ، فقد أكثر تضمين أبياته لشعر امرئ القيس وأبى تمام . إلا أن القيام بترجمة قصائد من هذا النوع ليس عملاً سهلاً ، لأن أى تلاعب بالألفاظ سيجعل الكلمة تحتوى على معنيين ، أو على دلالة مزدوجة ، وهذا بدون شك سيفقد الشعر قيمته عند ترجمته أو حتى عند التعليق عليه .

كان الغرض الأساسى من وراء هذه الدراسة هو نشر النص العربى مع التعليقات الضرورية للكلمات التى أستخدمت كتورية ، إلا أننى قررت فى النهاية أن أقدم ترجمة بجانب النص العربى ، على الرغم من أن ذلك سيفقد العمل القيمة الجمالية ، ولعل هذا يتوقف على مدى أهمية الكتاب بالنسبة للقارئ ، إذ أن كتاب " رائق التحلية فى فائق التورية " لابن خاتمة ، عبارة عن تجميع بسيط لأبيات شعرية تضمنت أنواعًا من التوريات ، وليس عملاً يشرح خصائص التورية كصورة من صور المحسنات البديعية كما فعل الصفدّى ، أضف إلى ذلك أن هذا الكتاب يعد الكتاب الوحيد الذى وصلنا من شاعر أندلسى وقد احتوى على هذا الكم الكبير من الأشعار التى استخدمت فيها التورية .

تعرفنا من خلال لسان الدين بن الخطيب والمقرّى على أن هناك شاعرًا آخر كان معاصرًا لابن خاتمة وهو : إبراهيم بن عبد الله بن إبراهيم النُمَيْرى من غرناطة والمعروف بابن الحاج وكان كاتبًا ومؤرخًا أيضًا ، وله كتاب مشهور بعنوان " مثالب القوانين فى التورية والاستخدام والتضمين " ولكنه مفقود . [1]

وإلى جانب المقتطفات الشعرية المتعلقة بالتورية ، وجدنا هناك معلومات وردت لها علاقة بالمؤلف نفسه ، وهى معلومات وإن كانت ليست ذات قيمة عالية إلا أنه من المناسب أن نشير إليها وهى :

- فى صفحة ٣٧ رقم (٥١٨)° ورد خبر شفاعة ابن خاتمة لدى القاضى أبو البركات البليفيقى [2] حتى لا يدين امرأة دخلت الحمام بدون مئزر ، فأمر القاضى أبو البركات بتثقيفها .

---

(١) الاحاطة : طبعة عبد الله عنان ، ص ٣٥٥ ، والمقرّي : نفح الطيب ، جـ ٩ / ص ٣١٥ ، والزركلى فى كتاب الاعلام : جـ ١ / ص ٣٢ .

(٢) عن القاضى " أبو البركات البليفيقى : انظر بحثى بعنوان القاضى البليفيقى ، قاضى ومؤرخ وشاعر فى مجلة الاندلس ، العدد (٢٨) ١٩٨٣م ، من ص ٣٨١ - ص٤٢٤ .

- فى صفحة ٣٩ رقم (٢٣)° قصيدة مهداة لأبى البركات البليفيقى لرفضه تناول الطعام فى حديقة للسان الدين بن الخطيب ، ويزيد ابن خاتمة هنا ، أنها كانت بمناسبة إعذار الأمراء ، اجتمع هناك ثلاثة أشخاص ، القاضى أبو البركات البليفيقى ، وأبو جعفر بن عبد الحق المالقى ، وابن خاتمة نفسه . (من المحتمل أن يكون هذا الخبر له علاقة بما أخبرنا به ابن الخطيب فى الإحاطة [١] عندما قال : إن ابن خاتمة كان قد جاء عدة مرات إلى غرناطة ، وفى إحدى هذه الزيارات كان السبب من وراء مجيئه هو حضور حفل إعذار الأمراء أولاد أبى يوسف فى شهر شعبان (عام ٧٥١هـ = أكتوبر من عام ١٣٥٠م) .
- فى صفحة ٣٩ رقم (٢٤)° ورد الآتى : " أمضينا الليلة فى غرناطة فى منزل الشريف القاضى العالم خطيب وإمام العاصمة ، ورمز الشرف " أبو القاسم محمد الحسنى [٢] مع أبى البركات البليفيقى ، والقاضى ابن أبى إسحق بن شعيب . [٣]
- صفحة ٤١ رقم (٢٨)° : ورد خبر حول الطلب الذى كان قد طلبه منه أبو القاسم رضوان حول (أبياته الشعرية) ، وهذا الخبر له أهمية كبرى ، ربما يسمح لنا أن نتعرف على الصديق الذى طلب منه نظم هذه المجموعة ، والذى لم نجد اسمه فى مقدمة هذا الديوان .
- صفحة ٤٢ رقم (٣٣)° : ورد شعر موجه للقاضى أبى عبد الله بن شعيب أثناء حكمه للقصبة فى ألمرية ، بمناسبة ضيافته للفقيه الوزير الأديب المتميز أبو عبد الله بن جُزى .
- فى صفحة ٤٩ رقم (٥٠)° : وردت أبيات شعرية نجح فيها ابن خاتمة أن يقنع أبا البركات البلفيقى بالعدول عن رحلته فى ٢٦ من جماد الثانى سنة ٧٣٧هـ = ١٣٣٨م منقذا له من الموت حين غرق القارب .
- فى صفحة ٥٠ رقم (٥٤)° : ورد شعر يمتدح فيه يوسف الحاج من غرناطة . [٤]

لقد أشرنا فى هذا التحقيق إلى الفروق الواضحة بين مخطوطة الإسكوريال وهى التى رمزنا لها بالرمز " أ " ومخطوطة باريس والتى رمزنا لها بالرمز " ب " ، وحاولت أن استخرج من أبيات الشعر الكلمة أو الكلمات التى استخدمت فيها تورية ، وهذه الكلمات سوف تظهر فى فهرس خاص بها ، مضافا إليها فهارس أخرى لأسماء الأعلام ، والأماكن ، والقوافى ، التى وردت فى الكتاب .

---

(١) طبعة عبد الله عنان ، جـ١ / ص ٢٥٢ .
(٢) حول أبى القاسم الخشنى ، أستاذ ابن زَمْرك ، انظر : أزهار الرياض : جـ٢ / ص٩ – ص١٢.
(٣) عن ابن شعيب ، انظر : درة الحجال : جـ٢ / رقم (٩٧٥) .
(٤) رجل جليل من مالقة ، توفى ٧٨٠هـ = ١٣٧٨م ، درس فى تونس ، وكان تولى مناصب مهمة فى البلاط المرينى ، انظر : نفح الطيب : جـ٨ / ص٢١٤ – ص ١٩ .

الدراسة

وعن دراستى حول مقدمة سوليداد وما جاء بها عن " كتاب رائق التحلية فى فائق التورية " لابن خاتمة المريّى فهى تنقسم إلى قسمين ، أما الأول منهما فيتعلق بتعريف التورية اللغوى والاصطلاحى مع الإشارة إلى أنواع التورية لدى علماء البلاغة مع الاستشهاد بالأمثلة .

ويأتى القسم الثانى ويدور حول ابن خاتمة الأديب المريىّ الشهير بين معاصريه ، والذى ترك لنا مؤلفات هامة ، تشى بمعارف متعددة الجوانب وتؤمئ إلى مستواه الأدبى واللغوى . والتى تجعلنا نضعه بين مجموعة الشعراء والأدباء الذين أعطوا المرحلة الأخيرة من حياة الأدب الأندلسى طابعه الأدبى المميز ثم نختتم الدراسة بالتعليق على محتوى الكتاب ، والمآخذ على تحقيق د. سوليدات خيبرت .

من الواضح أن سوليداد خيبرت بذلت جهدًا كبيرًا ومضنيًا فى تحقيق وترجمة هذا الكتاب إلى الإسبانية ، وهو دين فى عنق الإسبان ننهض به متعاونين ، وتأتى أهمية هذا الكتاب فى أنه الوحيد الذى وصلنا من شاعر أندلسى ، وقد احتوى على هذا الكم الهائل من التوريات ، ومن خلال الوقوف على ما ورد فى الكتاب من شواهد شعرية أمكننا التعرف على أن هذا الأسلوب المتكلف ، كان اللعبة المفضلة فيما يبدو ، عند الأدباء الأندلسيين فى القرن الرابع عشر الميلادى ، ولم يستطع ابن خاتمة أن ينجو من تأثير هذه البيئة فالكتاب ملئ بالشواهد العديدة على هذا الأسلوب الأدبى المتكلف . وقبل أن نبدأ بالتعليق على ما ورد فى تحقيق سوليداد لهذا الكتاب يجدر بنا أن نعطى لمحة سريعة عن هذا الوجه البلاغى الذى عُرف بالتورية .

أولاً : المفهوم اللغوى للتورية

" وريت الشىء وواريته : أخفيته ، وتوارى هو : استتر ووريت الخبر : جعلته ورائى وسترته " . (١)

فالمعنى اللغوى للتورية يدل على الخفاء والتستر ، ويذهب كراع إلى أن وريت الخبر ليس من معنى وراء لأن لام وراء همزة وفى ذلك يقول : " وريت الخبر : جعلته ورائى وسترته ؛ عن كراع وليس من لفظ وراء ، لأن لام وراء همزة ، وفى الحديث : أن النبى (ﷺ) ، كان إذا أراد سفرًا ورّى بغيره ، أى سَتَرَه وكنّى عنه وأوهم أنه يريد غيره ، وأصله من الوراء أى ألقى البيان وراء ظهره ، ويقال : واريته ووريّته بمعنى واحد ، وفى التنزيل العزيز : " ما وُرِىَ عنهما " أى سُتِر على فُوعِلَ ، وقرئ : " وُرِّى عنهما " بمعناه . وَرَّيْتُ الخَبر أُوَرِّيه تَوْرِية إذا سترته وأظهرت غيره ، كأنه مأخوذ من وراء الإنسان ، لأنه إذا قال وريّته فكأنه يجعله وراءه حيث لا يظهر " . (٢)

وقد أورد كراع يقول : " وريَةُ النار غير مهموزة ، وهو ما تُورَى به النار ، عودًا كان أو غيره . والرِّيَة مثل العِدَة والزِّنة والهبة والإبة ، وأصلها وِرْيَة ، ووِزْنة ووهْبَة ووعْدَة ، ووُنِبة من وأبَ يَئبُ : إذا استحيا ، من قولهم : ورَتَ النارُ ، وأوريْتُها أنا قال الطرمَّاحُ – وذكرَ طريقًا :

- كظهر اللأى لو تُبْتَغى ريةٌ به ∴ لعيّتْ نهارًا فى بُطون الشَّواجن

الشَّواجن : مَجارى الماء إلى الأودية . (٣)

فالمعنى اللغوى للتورية يدل على الخفاء والتستر .

- المعنى الاصطلاحى للتورية :

وقد أورد صاحب الإيضاح التورية بقوله : " ومنه التورية وتسمى الإيهام أيضًا وهى : أن يطلق لفظ له معنيان : قريب ، وبعيد ، ويراد به البعيد منهما " . (٤)

وقد أورد السكاكى فى مفتاح العلوم التورية فى معنى الإيهام ، وفى ذلك يقول : " ومنه الإيهام : وهو أن يكون للفظ استعمالان : قريب وبعيد ، فيذكر لإيهام القريب فى الحال إلى أن يظهر أن المراد به البعيد كقول الشاعر :

- حَمَلْنَاهُم طرًا عَلَى الدُّهْمِ بَعْدَمَا ∴ خَلَعْنَا عَلَيْهِمْ بالطِّعَانِ مَلابِسَا

---

(١) ابن منظور : لسان العرب ، المجلد التاسع ، دار الحديث ، القاهرة ، ص ٢٨٦ .
(٢) المصدر الاسبق نفسه : ص ٢٨٦ .
(٣) أبو الحسن على بن الحسن الهنائى : المنجد فى اللغة ، ت: أحمد مختار عمر ، د. ضاحى عبد الباقى ، ص ٢٥ .
(٤) الخطيب القزوينى : ٦٦٦ – ٧٣٩هـ : الإيضاح فى علوم البلاغة ، ت: د/ محمد السعدى فرهود ، ص ٥١٦ .

أراد بالحمل على الدهم تقييد العدا ، فأوهم إركابهم الخيل الدهم كما ترى ، وقوله سبحانه : ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ ، وقوله : ﴿ والأرض جميعًا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه ﴾ وأكثر المتشابهات من هذا القبيل " .(١)

ولعل أسامة بن منقذ – ٥٨٤ هـ من أوائل من أوصل إلينا حد التورية بقوله : " اعلم أن التورية : هى أن تكون الكلمة بمعنيين ، فتريد أحدهما ، فتورى بالآخر " .(٢)

وقد شرحها صاحب جواهر البلاغة بقوله : " هى أن يذكر المتكلم لفظا مفردًا له معنيان : أحدهما قريب غير مقصود ودلالة اللفظ عليه ظاهرة ، والآخر بعيد مقصود ، ودلالة اللفظ عليه خفية ، فيتوهم السامع : أنه يريد المعنى القريب ، وهو إنما يريد المعنى البعيد بقرينة تشير إليه ولا تظهره ، وتستره عن غير المتيقظ الفطن كقوله تعالى : ﴿ وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ﴾ أراد بقوله " جرحتم " معناه البعيد ، وهو ارتكاب الذنوب ، ولأجل هذا سميت التورية " إيهاما وتخييلاً " .(٣)

فهى وجه بلاغى يقوم على تعدد المدلول (حقيقة كان أو مجازًا) فى الدال الواحد فالمتكلم يستغل الاشتراك القائم فى القاموس ، ويجريه فى الكلام " هى أن يأتى المتكلم بلفظة مشتركة بين معنيين : قريب وبعيد ، فيذكر لفظًا يوهم القريب ، إلى أن يجئ بقرينة يظهر منها أن مراده البعيد " .(٤)

وقد خص أبو القاسم محمد بن عبد الغفور الكلاعى الإشبيلى الأندلسى فصلاً فى المورى وفى ذلك يقول : " وسمينا هذا النوع من الكلام المورى لأن باطنه على غير ظاهره ، ومنه الحديث : كان رسول الله (ﷺ) : إذا أراد سفرًا ورى بغيره وهو نوع من غريب الكلام كقول النبى (ﷺ) لعجوز إن الجنة لا يدخلها عجوز ، يريد أنهن يعدن شواب " .(٥)

وفى موضع آخر من كتابه يقول : " وقد نحا هذا المنحى ابن دريد فى (الملاحن) وابن فارس فى (فتيا فقيه العرب) وقد سلك أبو العلاء أيضًا هذا المسلك وجرى فيه ملء عنانه " .(٦)

وقد عرض ابن الأثير للتورية ، وجعلها والكناية بمعنى واحد حيث يقول : " حد التورية أن تكون الكلمة تحتمل معنيين ، فيستعمل المتكلم أحد احتماليهما ويهمل الآخر ، ومراده ما أهمله لا ما استعمله وحد التوجيه أنه اللفظ المحتمل وجهين

---

(١) أبو يعقوب يوسف بن أبى بكر محمد بن السكاكى ، ت. ٦٢٦هـ ، مفتاح العلوم ت ، نعيم زرزور ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ص ٤٢٧ .

(٢) أسامة ابن منقذ : البديع فى نقد الشعر ، تحقيق الدكتورين : أحمد أحمد بدوى وحامد عبد المجيد ، القاهرة ، ١٣٨٠هـ ، ١٩٦٠ ، ص ٦٠ .

(٣) أحمد الهاشمى : جواهر البلاغة فى المعانى والبيان والبديع ، دار إحياء التراث العربى ، بيروت ، ص ٣٦٣ .

(٤) د. أحمد مطلوب : فنون بلاغية البيان – البديع ، دار البحوث العلمية، الطبعة الأولى ، ١٣٩٥هـ ، ١٩٧٥ ، ص ٢٩٣ .

(٥) أبو القاسم محمد بن عبد الغفور الكلاعى الإشبيلى الأندلسى : أحكام صنعة الكلام ، ت: محمد رضوان الداية ، دار الثقافة ، بيروت ، ص ١٨٠ .

(٦) المرجع السابق .

يحمل المتكلم مراده على أيهما شاء ، ولا فرق بين التورية والكناية ، إذ التورية ذكر لفظ له معنيان والكناية كذلك وما قال أحد من العلماء بالفرق ، إلا أن التورية أفردت وصار الناس يلهجون بذكرها فى محاوراتهم ، ونظمهم ونثرهم ويستحسنون لفظها فصارت كأنها غير الكناية " . (١)

فالتورية " هى أن تكون الكلمة محتملة لمعنيين ويستعمل أحد هذين الاحتمالين ويهمل الآخر ، ومراده ما أهمله لا ما استعمله أو يكون للكلمة معنيان : قريب وبعيد ، ويراد البعيد منهما ومن أمثلة ذلك قوله تعالى : ﴿ قالوا تالله لفى ضلالك القديم ﴾ يوسف ٩٦ . (٢)

وذهب صلاح الدين الصفدى (ت. ٦٩٦ -٧٦٤هـ) فى حديثه عن التورية :

" هى مادة الواو والراء والألف وأن أقسامها لا تخرج عن معنى الستر والكشف كيف تقلبت ؟ ألا ترى : أن التورية لا تتم إلا من جزأين أحدهما معناه فى التورية والحسن فى الكلام مستورًا إلى أن يجئ الآخر ، فيظهر ما كان خافيًا ، ولا تقل ، فيظهر الجزء الأول معنى الجزء الآخر ، كما فى أحد قسمى المبينة وأحد قسمى المرشحة ، وأحد قسمى المهيأة ، فيكون الخفاء فى الثانى والظهور فى الأول ، وهذا انتقال من ظهور إلى خفاء وهو عكس المطلوب ، لأنى أقول هذا مغلطة منك أو عدم تصور لذات التورية لأن الجزء الأول إذا ترك وحده لا يعطى التورية حتى يجئ الآخر وأعنى بالتورية المورى عنه المورى به نفسيهما كالغزالة فى قول القاضى عياض ، فإنها مورى عنه ، والجدى والحمل فإنهما مورى بهما ، فلو اقتصر المتكلم فى قوله : أو الغزالة من أول " المدى خرفت فما تفرق " على هذا وسكت ، أو قال " فما تفرق بين منازل الربيع ومنازل الشتاء " ما كان ذلك تورية ولا حسن " . (٣)

ويذهب الدكتور عبده عبد العزيز قلقيلة إلى أن " التورية فى اللغة مصدر وريت الخبر تورية إذا سترته وأظهرت غيره وفى الاصطلاح البلاغى : هى إيراد لفظ له معنيان : أحدهما قريب ظاهر غير مقصود وهو المورى به ، والآخر بعيد خفى مقصود وهو المورى عنه ولا فرق بين المعنيين اللغوى والاصطلاحى " . (٤)

ويذهب أحد الباحثين إلى أن التورية نوع من الجناس إلا أن قوامها المعنى أو الجناس معكوسًا والأمر أشبه ما يكون بالمشترك اللفظى بالجناس والمعنوى بالتورية أقول أشبه ، وإلا أن التمازج بها بالغ إلى درجة الغموض والنقد أحيانًا ، لأنها تتمازج

---

(١) نجم الدين أحمد بن إسماعيل بن الأثير الحلبى : ت ٧٣٧هـ ، جوهر الكنز ، تحقيق : د. محمد زغلول سلام الناشر ، منشأة المعارف بالإسكندرية ، ص ١١١ .

(٢) د. عبد القادر حسين : فن البديع ، دار الشروق ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٣هـ ، ١٩٨٣م ، ص ٦٦ .

(٣) صلاح الدين الصفدى (٦٩٦ - ٧٦٤هـ) : فض الختام عن التورية والاستخدام دراسة وتحقيق د. المحمدى عبد العزيز الحناوى ، الطبعة الأولى ، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م ، دار الطباعة المحمدية ، ص ١٧٥ .

(٤) د. عبده عبد العزيز قلقيلة : البلاغة الاصطلاحية ، دار الفكر العربى ، الطبعة الثانية ، ١٤١١هـ - ١٩٩١م ، ص ٣٠١ .

بالمعنى وتتمايز بالمعنى أيضًا ، والجناس يتمايز بالمعنى ويتمايز باللفظ ، والتمايز باللفظ أوضح من التمايز بالمعنى فليس الحس كالعقل ولا المحسوس كالمعقول . هذا الفارق أو هذا الخفاء هو ما جعل استخدامها بالأداب قليلاً إلا بعصور الضعف لغموض جمالها . (١)

ويذهب د. أسامة البحيرى إلى اعتبارها وجهًا بلاغيًا يقوم على تعدد المدلول وفى ذلك يقول : " فهى وجه بلاغى يقوم على تعدد المدلول (حقيقة كان أو مجازًا) فى الدال الواحد فالمتكلم يستغل الاشتراك القائم فى القاموس ويجريه فى الكلام ، ومعيار التمييز بين المعنى المراد والمعنى البعيد هو المقام ويمكن صياغة ذلك فيما يلى :

- المدلول (١) -> الموحى به (قريب ، لا يلائم المقام) -> ملغى .
- المدلول (٢) -> الموحى عنه (بعيد ، لا يلائم المقام) -> مقبول (مقصود) .

ثنائية الخفاء والتجلى ماثلة فى بنية التورية ، لأنها تقوم على الاستخدام الأمثل لظاهرة لغوية هى " المشترك اللفظى " .

فى مجال اختيار الدوال وفى مجال توزيعه وتركيبه مع الدوال الأخرى للإفادة من مدلولاته المشتركة ، ومن هنا تبرز ظاهرة أسلوبية هى التورية " كوسيلة فنية لإبراز دلالة ثنائية لها سياقها الفنى الذى تُزرع فيه ، فتنشر حولها نوع من الغموض المقصود الذى لا يصل إلى حد التعمية والإيهام " . (٢)

فالتورية من العلوم البلاغية التى تجعل اللفظ يحمل أكثر من دلالة وتكون الدلالة الحقيقية أو المسطورة هى المقصودة فعندما يقرأ المتلقى العبارة اللغوية يتوهم فى بداية سماعه أن المخاطب يريد المعنى القريب ولكنه فى الحقيقة أظهر المعنى غير المقصود من أجل أن يوارى المعنى البعيد بقرينة تشير إليه فمن ثم سميت التورية إيهامًا وتخييلاً . (٣)

يقول الله تعالى : ﴿ وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ﴾ فيقع الباحث على لفظ جرحتم ما المقصود به هل هى الدلالة الحقيقية أم الدلالة السطحية ، فجرحتم بمعنى عملتم وهى دلالة سطحية أما إذا تعمقنا فى الجذر الدلالى للفظ فهى بمعنى ارتكاب الذنوب والمعاصى ونجد معنى التورية أيضًا فى القرآن فى قوله فمن شهد منكم الشهر فليصمه " ، فأى دلالة يقصد الله تعالى هل شهد بمعنى رأى أم أن شهد هنا بمعنى من جاء عليه الشهر وحل عليه وهى الدلالة البعيدة المقصودة ومن ثم يتضح لنا من خلال العرض أن التورية تكون من لفظ واحد ويقصد بها المخاطب معنى واحد فى حين أن اللفظ يحمل معنيين بأصل الوضع والمتلقى يختار المعنى الدلالى المقصود .

وإذا نظرنا إلى المجتمع الأندلسى وجدنا أن التورية علم يتناسب مع العصر الذى ظهرت فيه ، ولعل ظهور التورية فى الأدب الأندلسى فى عصر ابن خاتمة إنما يعود إلى القهر السياسى الذى تولد عنه النفاق والمواراه ومن ثم فالتورية مجال فسيح للأديب وعالم اللغة حيث يذهب معها مذاهب شتى ، ويلعب ما شاءت له

---

(١) عبد الله عووضة حمور : الصورة الشعرية عند المعرى ، دراسة نقدية قوامها الاحصاء والتحليل ، ماجستير تحت إشراف الدكتور محمود الربيعى ، ١٣٩٦هـ ، ١٩٧٦م ، كلية دار العلوم ص ٤٠ .

(٢) د. أسامة البحيرى : تحولات البنية فى البلاغة العربية ، دار الحضارة للطبع والنشر والتوزيع الطبعة الأولى ، ٢٠٠٠ ، ص ٤١١ .

(٣) أحمد الهاشمى : جواهر البلاغة والبيان والبديع ، دار إحياء التراث العربى ، بيروت ص ٣٦٣ .

قدرته ، وهو فى الوقت نفسه يبين مهارة الأديب وقدرته فى امتلاك ناصية اللغة ، وهى تتولد من المشترك اللفظى والأضداد من لفظ له معنيان قريب وبعيد ، والدلالة تكون فى المعنى البعيد ، وقد قسمها السكاكى فى المفتاح إلى مجرّدة ومرّشحة أما المجردة فهى لا تجامع شيئًا مما يلائم المورى به أى المعنى القريب ، وأما المرشحة فهى التى قرن بها المورى به إما قبلها وإما بعدها .

٣- أقسام التورية :

أ) المجردة :

وقد سُمِّيت المجردة لتجردها من لازم لوازم المورى به وهو المعنى القريب ولا من لازم المورى عنه وهو المعنى البعيد فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ ، لفظ استوى يحمل دلالتين الدلالة الأولى الاستقرار فى المكان ، الدلالة الثانية وهى بؤرة المعنى الاستعلاء والملك وفى الآية لا نجد لوازم هذا ولا ذاك وهو ما يسمى بالتعدد الدلالى .

ب) المرشحة :

يذكر فيها لازم المورى به وهو المعنى القريب :

- قالتْ قِفُوا واستمعُوا ما جَرَى ∴ خَالِي قَدْ هَامَ بِهِ عَمِّى

فكلمة خال : خال النسب ، وقد ذكر لازمه بعد لفظ التورية وهى عمى أما المعنى البعيد فهو الشامة السوداء تظهر فى الوجه غالبًا .

ج) التورية المبيِّنة :

ويذكر فيها لازم المورى عنه قبل لفظ التورية أو بعده وهى بذلك قسمان ما ذكر فيها اللازم قبل اللفظ منها قول الشاعر :

- وراء تسْديه الوشَاح مَلِيَّة ∴ فى الحُسْن تَمْلُحُ فى القلوبِ وتَعْذُبُ

فتملح قد تكون من الملوحة وهذا المعنى غير مراد ويحتمل أن تكون من الملاحة التى هى عبارة عن الحسن وهو المعنى المورى عنه وهو المراد وقد تقدم من لوازمه قوله ومليه بالحسن .

الثانى : يذكر لازم المورى عنه بعد لفظ التورية ، يقول الشاعر :

- أرَى ذَنَبَ السَّرْحَان فى الأفق طالعًا ∴ فهل مُمْكِنٌ أنّ الغزَالَة تَطْلُعُ

الشاهد الدلالى لكلمة الغزالة قد يكون بمعنى الشمس هذا المعنى المورى عنه وقد جاء لازمة المبين بعده ، وهو تطلع ، وهى قرينة لفظية تجعل الدلالة المقصودة هى الشمس ، أما المعنى السطحى أو القريب غير المقصود هى الغزالة ، الحيوان المعروف ولكن لا توجد قرينة تقوى هذه الدلالة .

د) التورية المهيأة :

هى التى تتهيأ بلفظ قبلها أو بعدها فثمة لفظان لولا كل منهما لما تهيأت التورية فى الآخر وعلى هذا الأساس فالمهيأة أضرب ثلاثة .

- الأول : تتهيأ التورية من قبل " أظهرت ذاك الفرض من ذلك الندب " فالفرض والندب من الأحكام الشرعية وهو معنى قريب والاحتمال الآخر أن الفرض بمعنى العطاء والندب صفة الرجل السريع فى قضاء حوائج الناس وهذا هو المعنى البعيد .

والذى جعلنا نرجحه أن ابن ثناء الملك يمدح الملك المظفر صاحب حماة .

- أظهرتَ فينا من سَمَيك سنة ∴ فأظهرتَ ذاكَ الفرضَ من ذلِك النَّدْبِ

فـ " السنة " هو اللفظ الذى حدد الدلالة الثانية المقصودة .

- الثانى هو الذى تتهيأ فيه التورية بلفظ من بعده مثل قول على رضى الله عنه إنه كان يحوك الشمال باليمين فالشمال هى الكساء هذا المعنى الخفى هو المقصود ، أما المعنى السطحى هو اليدين .
- الثالث : هى أن تقع التورية فى لفظين لولا كل منهما لما تهيأت التورية فى الآخر ومنها قول عمر بن أبى ربيعة :

- أيها المُنكِح الثُّريَّا سُهَيْلاً ∴ عَمْرَكَ الله كيفَ يَلْتَقِيان [1]

الثريا " وسهيلاً " الدلالات اللفظية لهما أن الثريا هى بنت على بن عبد الله بن الحارث وكان قد تزوجها سهيل بن عبد الرحمن بن عوف على الرغم من الفرق الشاسع بينهما فالثريا غاية الجمال ، والسهيل عكس ذلك ، فالمعنى البعيد لسهيل هو عبد الرحمن أما القريب فهو النجم المعروف ، هكذا تتعدد الدلالة فى التورية فذكر عمر الثريا وسهيلاً ليوهم السامع أنه يريد النجمين المشهورين لأن الثريا من منازل القمر الشامية ، وسهيلاً من النجوم اليمانية وهو يريد صاحبته الثريا ، وكان أبوها زوجها برجل من أهل اليمن يسمى سهيلاً . [2]

---

(١) الأزهر الزناد : دروس فى البلاغة العربية ، ص١٧١ ، الطبعة الأولى ، المركز الثقافى العربى للنشر والتوزيع ، الدار البيضاء ، بيروت ، ١٩٩٢م .

(٢) د. عبد العال سالم مكرم : تطبيقات نحوية وبلاغية ، جـ٤ / ص٥٧٠ ، دار البحوث العلمية .

ثانياً : ابن خاتمة

- عصر الشاعر :

هدأت الأحوال السياسية هدوءًا نسبيًا ، فى مملكة غرناطة ، فى القرن الثامن ، بالقياس إلى الاضطراب والفوضى وحال التقهقر وسقوط المدن والممالك والحصون فى أثناء القرن السابع ، فقد استبد بنو نصر المعروفون ببنى الأحمر بشؤون الدولة الإسلامية المتبقية لهم من الأندلس ، وضبطوا شؤونها ، وبعد سلسلة متلاحقة من التنازلات للجانب الآخر من جانبى الصراع ، شعروا بضرورة الوقوف صامدين أمام ذلك المدّ الخارجى ، وأن يُحسنوا الدفاع عن الباقى إن لم يستطيعوا استعادة ما فقدوه بأنفسهم ، وما فقده من سبقهم من بنى هود وبنى مَرْدَنِيش وأواخر أمراء المُوحِّدين المستضعفين .

ويُخيّل إلى الناظر فى تاريخ القرن الثامن الهجرى أن الأندلس تستردُ عهد قوة وتمكن وتُعيد إلى الحياة ذكريات قديمة من بعض أيام القوة والسيادة ، سواء فى ذلك ما يتصل بالشؤون العسكرية والإدارية والسياسية أو ما يتصل بالشؤون الحضارية عامة ، والشؤون الفكرية والفنية والمعاشية خاصة .

وهكذا نشطت الحركة العسكرية بالتعاون بين الأندلس والمغرب ، وتوجهوا نحو تحالف الدويلات الشمالية بما صان الحدود وحمى البلاد ، وكثرت العمائر الفخمة من قصور ومساجد وقناطر ومدارس ، وركن الناس إلى شىء من الاطمئنان وإن كان مشوبًا دائمًا بالحذر من عدو خارجى أو فتنة داخلية . (١)

---

(١) للتوسّع فى تاريخ هذه الفترة يرجع إلى :
- الإحاطة فى تاريخ غرناطة : تأليف لسان الدين بن الخطيب ، (نشر مكتبة الخانجى بالقاهرة ، تحقيق الأستاذ محمد عبد الله عنان ، المجلد الأول ، القاهرة ، ١٩٥٥م) .
- اللمحة البدرية فى الدولة النصرية ، للسان الدين ، صححه ووضع فهارسه محب الدين الخطيب ، القاهرة ١٣٤٧هـ .
- كناسة الدكان بعد انتقال السكان للسان الدين : مطبوعات وزارة الثقافة ، القاهرة ، ١٩٦٦ ، تحقيق د. محمد كمال شبانة .
- نفاضة الجراب فى علالة الاغتراب ، للسان الدين : القاهرة ، بدون تاريخ ، تحقيق : د. أحمد مختار العبادى . =
- أعمال الأعلام للسان الدين : تحقيق : ل. بروفنسال ، طبعة بيروت ، دار المكشوف .
- الكتيبة الكامنة للسان الدين بن الخطيب : تحقيق : د. إحسان عباس ، بيروت ، ١٩٦٦م .
- التعريف بابن خلدون ورحلته غربًا وشرقًا : تحقيق الأستاذ محمد بن تاويت الطنجى ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٣٧٠هـ / ١٩٥١م .
- رقم الحلل فى نظم الدول للسان الدين : طبعة تونس ، ١٣١٦هـ .
- نثير فرائد الجمان فى نظم فحول الزمان لابن الأحمر ، تحقيق : د. محمد رضوان الداية ، طبعة دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٦٥ .
- نثير الجمان فى شعر من نظمنى وإياه لابن الأحمر (مؤسسة الرسالة الطبعة الثانية) .
- الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى : للناصرى السلاوى ، الدار البيضاء بالمغرب ١٩٥٤م .
- نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين ، محمد عبد الله عنان ، مطبعة مصر ١٩٤٩م .
- نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين ، محمد عبد الله عنان ، مطبعة مصر ١٩٤٩م .

هذا بالإضافة إلى التواريخ العامة ، كتاريخ ابن خلدون ، ونفح الطيب للمقرّى ، الأدب العربى ، جـ ٦ ، د. عمر فروخ وغيرها .

وفى هذا القرن ظهر نشاط أدبىً واسع تناول جانبى الشعر والنثر ، وظهر أعلام كبار فى غرناطة ، ورندة ، والمريَة ، وبَسُطة ، ووادى آشْ ، وغيرها : أسهموا فى الفنون الأدبية نظماً وتأليفًا ومشاركة ، وأضافوا إلى تراث أجدادهم شيئًا طريفًا يدل على حيوية الأندلسيين ونصاعة بيانهم ، كما يدل من جهة أخرى ، مهمَة ، على أنَ تأنقَ العبارة ، وجودة الصياغة ، والتمكن من ناصية اللغة ، ومتابعة الفحول من أعلام الأدب العربىَ ، كل ذلك استمر بارزًا فى ذلك الصقع البعيد ، وبرز شعراء وكتَاب لهذا القرن ، وفى القرن الذى تلاه أيضًا ، لم يلنْ شعرهم ، ولم تسقط عبارتهم ، ولعل استمرار ذلك القطر على نمط من العروبة فريد مكنهم من تلك النصاعة ، والمقدرة ، والبراعة .

فى هذا القرن (الثامن) نجد أسماء لامعة متألقة ، بعضهم أسعفهم الحظ وأعانهم السعد ، فبقى من تراثهم ديوان شعر أو مجموع تَرَسُّل ، أو كتاب مفرد ، وبعضهم كان دون ذلك فعرفنا شيئاً من أخبارهم وشيئاً من شعر أو نثر ، وهناك فئة ثالثة درست آثارهم فلم يبق مما يتصل بهم شىء يُصح أو يُبين .

ومن رجال الفئة الأولى ، الشيخ الرئيس أبو الحسن بن الجَيَّان ، كاتب الدولة النصرية ووزيرها ، ومنهم الوزير الخطير ذو المقام الرفيع لسان الدين بن الخطيب ، ومنهم الرَحالة الحاج القاضى خالد بن عيسى البلوى ، ومنهم الشاعر الكاتب الوزير ابن زَمْرَك ، الذى يزيّن شعره قصر الحمراء فى غرناطة بنى نصر ، ومن هؤلاء صاحب المجموعة الشعرية التى نقدمها ، الأديب ، الشاعر ، الكاتب ، العالم ، المصنف المتفنّن ، أبو جعفر أحمد بن على بن على بن خاتمة الأنصارى ، الأندلسى المريىِّ ، من أهل مدينة ألمرية ، إحدى مشاهير البلاد فى مملكة غرناطة .

- موطنه :

وألمرية [1] هى إحدى المدن الرئيسية فى دولة غرناطة ، وهى مدينة عربية أنشأت سنة ٣٤٤ أمر ببنائها أمير المؤمنين الناصر لدين الله عبد الرحمن الناصر وقد جعلها المسلمون مرأى ومراقبًا وبنوا فيها المحارس لتجنب أىِّ هجوم بحرى طارئ .

وتقع (ألمرية) على الشاطئ الجنوبى الشرقى من شبه جزيرة إيبرية ، وهى مرسى مهم من مراسى البحر المتوسط ، كانت تقصدها مراكب التجار من الإسكندرية والشام ، وسواها ، ووادى ألمرية مريع ، ونقل المقرَى فى نفح الطيب أنه أربعون ميلاً فى مثلها ، كلها بساتين بهجة ، وجنات نضرة ، وأنهار مطردة وطيور مغردة .

وقد توالى عليها الولاة والمستبدون بأمرها ، وبنيت فيها الحصون والقلاع واشتهرت بعدد من الصَنائع العامة ، وأخذت مكانة خاصة مع خيران العامرى استمرت مع عهد المرابطين (الملثمين) ، ولما ضاقت على المسلمين بلادهم باحتلال معظمها ، ازدادت مكانة هذه المدينة وأهميتها .

---

(١) راجع (ألمرية) فى الروض المعطار للحميرى : ١٨٣ ـ ١٨٤ ، ومعجم البلدان لياقوت : ١١٨ ـ ١١٩ ، ونفح الطيب للمقرَى : ١٦٢ ، والمغرب فى حلى المغرب لابن سعيد : ١٩٣/٢ ـ ٢٠٨ ، ومشاهدات لسان الدين (مجموعة من رسائله) تحقيق د. أحمد مختار العبادى : ٤٣ ـ ٤٤ .

و (ألمرية) [1] فى تقسيمات ابن سعيد فى (المُغرب) هى إحدى قواعد مَوْسطة الأندلس الست ، ومن أعمالها أندَرشَ وغيرها .

وذكر لسان الدين بن الخطيب فى كتابه (اللمحة البدرية فى الدولة النصرية) ما يرجع إلى مملكة غرناطة من الأقاليم والأقطار لزمانه ، فقال : إنه يرجع إليها ثلاثة وثلاثون إقليمًا منها إقليم أرش اليمن وفيه مدينة ألمرية ، ووصفها لسان الدين ، معاصر ابن خاتمة وصاحبه ، بأنها " معقل الإسلام ذات القصبة الشهيرة والجباية الغزيرة ... وأنه يرجع إليها عدد كثير من الحصون فى شرقيها وغربيها ... " .

- التعريف بابن خاتمة :

اسمه كاملاً أحمد بن على بن محمد بن على بن محمد ، يكنى أبا جعفر ، ويعرف بابن خاتمة الأنصارى ، الأندلسى ، وهذه السلسة مثبتة بخط الشاعر نفسه فى إجازة منحها لأحد تلاميذه على غلاف كتاب : " رائق التحلية " [2] . وهو فى مقدمة ديوانه لم يتجاوز جدّ والده المُسمى باسمه ، وتتفق كتب التراجم على هذا النسق ، غير أن صاحب النفح ينقل فى نسبة أخى الشاعر محمد أنه محمد بن على بن محمد بن على بن يحيى ، وكلمة (يحيي) مصحفة عن محمد . وأما ما وصلنا من أخبار تتصل بحياته فقليل ، على الرغم من شهرته ، وتشهد بها الإشارات الكثيرة التى نجدها عنه فى مؤلفات معاصريه ، وفى الحق أن اسم خاتمة يتردد بكثرة غالبة فى كتاب الإحاطة لابن الخطيب ، ومثله فى كتابى : المقرّى : نفح الطيب وأزهار الرياض والشىء نفسه نجده فى كتب التراجم الأخرى فى عصره .

وابن خاتمة مشهور فى عصره بفنون الثقافة المختلفة : شاعر وكاتب ، ومترسل ، وفقيه ، ومصنف ، وزاهد ، أثنى عليه معاصره وصاحبه وصديقه لسان الدين بن الخطيب ، وترجم له فى مواضع مختلفة من مؤلفاته ، فهو ذكره مطولاً فى كتابه (الإحاطة فى أخبار غرناطة) وفى (الكتيبة الكامنة) وفى (الإكليل الزّاهر) . وترجم له من معاصريه الأمير أبو الوليد إسماعيل بن يوسف بن الأحمر فى كتابيه

---

(١) قالوا فى النسبة إلى مدينة ألمرية : المريىّ ، واستثقلوها فقالوا : المرينى ، بإضافة النون الشائع إضافتها فى كثير من النسب ، وممن استعمل صيغة (المرينى) ابن سعيد فى كتاب المغرب ، وليس هناك علاقة بين المريني (نسبة إلى ألمرية) وبنى مرين حكام المغرب فى هذه المدة .

(٢) انظر ترجمة ابن خاتمة فى : الإحاطة فى أخبار غرناطة لابن الخطيب : ١/١١٤ ـ ١٢٩ ، والكتيبة الكامنة فى من لقيناه بالأندلس من شعراء المئة الثامنة لابن الخطيب ٢٣٩ ـ ٢٤٥ ، والإكليل الزاهر فيما فضل عند نظم التاج من الجواهر لابن الخطيب : ٢٢٣ . (وهو ملحق برسائل لسان الدين فى كتابه : ريحانة الكتاب ونجمة المنتاب ، من مخطوطة فى دار الكتب المصرية) . ونثير فرائد الجمان فى نظم الزمان للأمير ابن الأحمر : تحقيق الدكتور محمد رضوان الداية : ص٢٣١ ، ونثير الجمان فى شعر من نظمنى وإياه الزمان : طبع بتحقيق محمد رضوان الداية فى مؤسسة الرسالة ، ودرة الحجال فى غرة أسماء الرجال : لأحمد بن محمد المعروف بابن القاضى : ١/٤٠ ، ونيل الابتهاج بتظريز الديباج : لأحمد بابا الشهير بالتنبكتى : ٧٢ ، ومسالك الأبصار : لابن فضل الله العمرى ، مخطوطة بدار الكتب المصرية : جـ١١/ ص٥٠٢ ـ ٥٠٣ ، ونفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب : للمقرّى (فى مواضع متفرقة) ، وكتابه الآخر أزهار الرياض فى أخبار عياض (مواضع متفرقة) .

- وذكره إسماعيل باشا البغدادى فى هدية العارفين : جـ١/ ص١١٣ ، ومحمد بن محمد مخلوف فى شجرة النور الزكية : ٢٢٩ .

الاثنين : (نثير فرائد الجمان فى نظم فحول الزمان) ، و (نثير الجمان فى شعر من نظمنى وإياه الزمان) . وانتقى من شعره ونثره .

وترجم له ابن القاضى فى كتابه (درّة الحجال) ، وترجم له أحمد بابا فى نيل الابتهاج ونقل عن الحضرمى فى فهرسته ، ولابن خاتمة ذكر طويل وكثير عند المقرّى فى نفح الطيب وأزهار الرياض ، وقد اختار من شعره ونثره ، ونقل من كتب لابن خاتمة كان يملكها فى مكتبته ، وترجم له ترجمة سريعة ابن فضل الله العمرى فى مسالك الأبصار ، ومحمد بن محمد مخلوف فى شجرة النور الزكية .

وهذه التراجم قدمت لنا مادة واسعة سنفيد منها فى رسم معالم شخصية الشاعر وبيان مشيخته وتلاميذه ومؤلفاته وأخباره .

- شيوخه ، وتلاميذه :

سَمَّى لسان الدين بن الخطيب فى أحاديثه عن ابن خاتمة شيوخه البارزين الذين تلقى عليهم علومه وأجازوه ، فمنهم أبو الحسن على بن محمد بن أبى العيش الأنصارى المريىّ المتوفى عام ٧٤٠هـ = ١٣٣٩م وهو من مرسية ، وأقام فى ألمرية ، عندما سقطت مدينته فى يد النصارى ، وتولى قضاء ألمرية ، وكان يشغله قبله أبو جعفر بن فركون القيسى ، من جُلة العلماء ، وله مشاركة فى علوم الفلسفة [١] ، وإبراهيم بن محمد أبى العاص التنوخى ويعرف بابن أبى العاصى ، المتوفى ٧٢٦خـ - ١٣٢٥م ، أصلاً من جزيرة طريف ، ومن كبار القوم فيها ، رحل عنها عند استيلاء النصارى عليها فى عام ٦٧١هـ - ١٢٧٢م ، وتحول إلى مدينة سبتة ، وورد الأندلس فاستوطن غرناطة ، وكتب فى الجملة عن سلطانها ، وتولى الإمامة والخطابة فى مسجدها الجامع عام ٧١٦هـ - ١٣١٥م ، وطبقًا لما أورده ابن القاضى بدأ يؤلف كتابًا عن الأسرة النصرية ، ولكنه توقف عن محاولته ، وكان تقيًا زاهدًا فى الدنيا ، مواسيًا للفقراء " يتزاحمون عليه فى طريقه ، ويتمسحون به ، ويسعون بين يديه ومن خلفه ، ويتزاحم مساكينهم على بابه ، قد عودهم طلاقة وجهه ، ومواساته لهم بقوته ، يفرقه عليهم متى وجدوه ، وربما أعجزوه قبل استواء خبزه فيفرقه عليهم عجينًا " ، وفى عام ٧٢١هـ - ١٣٢٠م ، انتقل إلى ألمرية ، وكان إلى هذا شاعرًا ، وأغلب شعره فى الحكمة [٢] . والمحدّث الرّحالة محمد بن جابر بن حسان الوادى آشى ، المتوفى فى عام ٧٤٩هـ - ١٣٤٨م ، تونسى المولد ، وحج إلى مكة ، وجال فى البلاد المشرقية ، " ولقى أئمة من العلماء والمحدّثين ، وأصبح بهم شيخ وحده ، انفساح رواية وعلو إسناد " ، وكان مقرئًا متمكنًا ، أديبًا متميزًا ، ورجلاً تقيًا ، وحفظ لنا عنه ابن القاضى فى كتابه درة الحجال بيتًا من الشعر ، كان ابن عساكر الدمشقى يردده عندما ودعه وابن خاتمة فى ألمرية ، وكان الوداع ، طبقًا لابن خاتمة ، فى رابطة بألمرية تسمى " رابطة الوداع " [٣] ، والشيخ الفقيه محمد بن محمد أبو البركات ابن الحاج البلفيقى السُلمى ،

---

(١) انظر : ابن القاضى : درة الحجال فى غرة أسماء الرجال : جـ٢ / ص٤٠ الترجمة رقم (١٢٣٤) ، الرباط ، ١٩٣٤م .

(٢) عن ابن العاص التنوخى انظر : درة الحجال ، جـ١ ، الترجمة رقم (٢٣٢) .

(٣) عن ابن جابر . وهو مؤلف كتاب معروف عن رحلته انظر : درة الحجال ، جـ١ ، الترجمة : رقم (٥٢٧) . ونفح الطيب : جـ٨ / ص١٢٥ ، طبعة محى الدين . ويقول العسقلانى انه قام برحلتين ، وطبقا لابن الخطيب مات ضحية الطاعون . ويقول آخرون انه مات شهيدًا .

توفى عام ٧٧٤هـ - ١٣٧٢م ، وكان قاضيًا شهيرًا ، ومؤرخًا وشاعرًا ، وكان وثيق الصلة بابن خاتمة ، وارتبطت حياتهما معًا ، ودرست حياته على شكل مفصل سوليداد خيبرت ونشرته فى مقال لها بمجلة الأندلس *Al-Andalus* ، المجلد الثامن والعشرين عام ١٩٦٣م ، الصفحات من ص٣٨١- ص٤٢٤ ، والشيخ الخطيب عبد الرحمن بن محمد بن شعيب من أسرة عريقة فى ألمرية ، وتولى الخطابة فى المسجد الجامع فى ألمرية ، وبها شغل منصب القضاء ، وقبل ذلك كان تقيًا وزاهدًا ، لم يفارق وطنه أبدًا ، وكان مستقيم السلوك [١] ، والشيخ أبو جعفر بن فركون ، توفى ابن فركون عام ٧٢٩هـ - ١٣٢٨م ، وهو من ألمرية ، ثم انتقل إلى غرناطة ، وهو من العائلات الشريفة ، ولذلك استحق لقب " القرشى " ، وشغل منصب القاضى فى رُندة ، ومالقة ، وألمرية ، وأصبح خطيب المسجد الجامع فى غرناطة ، وظل فى منصبه هذا إلى أن عُزل عنه بسبب الأحداث التى أدت إلى خلع نصر ملك غرناطة عن العرش ، وتولية حفيده إسماعيل الأول (٧١٣هـ - ١٣١٤م) مكانه ، وكان وفاؤه للسلطان المخلوع سببًا فى إبعاده عن المنصب ، ومنذ هذه اللحظة طواه النسيان ، وقد عرف بالفقيه ، وكان شاعرًا مرتجلاً ، ومحبًا للجمل ذات الكناية ، ويستخدم التورية عندما يتحدث إلى أصدقائه . [٢]

والوزير الحاج الزاهد محمد بن سهل بن محمد بن مالك الأزدى ، أبو القاسم ، ويُعرف بالوزير ، توفى عام ٧٣٠هـ - ١٣٢٩م ، ويُعرف بيتهم ببنى مالك الوزير ، وهو من غرناطة أصلاً ، ثم رحل إلى المشرق ، وتوفى إثر عودته من الحج ، وكان أديبًا ، تقيًا زاهدًا ، " لا يقبل من أحد شيئًا ويعطى كل شيىء " . [٣]

وذكر ابن القاضى أيضًا من بين شيوخ ابن خاتمة ، محمد بن محمد بن عبد الواحد ، أبو القاسم البَلوى ، المتوفى عام ٧٤٧هـ - ١٣٤٦م ، كأستاذ لابن خاتمة ، وكان قاضيًا لمدينة بيره *Vera* ، ثم ألمرية ، ورحل حاجًا إلى مكة . [٤]

وأخيرًا ، يذكر ابن القاضى نفسه أستاذًا آخرًا لابن خاتمة ، هو : أبو عثمان سعد بن أحمد بن ليون التجيبى ، وقد خصه المقرّى فى كتابه نفح الطيب بصفحات طويلة نقلها نصًا عن ابن الخطيب ، وأورد له عددًا كبيرًا من الأبيات ، والمقطوعات ، فى الحكمة ، وخطرات فلسفية ، وتأملات فى حوادث زمانه ومصائبه ، نقلها من مؤلفاته التى تتصل بهذه الموضوعات وعناوينها :

١- كمال الحافظ ، وجمال اللافظ ، فى الحكم والوصايا والمواعد .
٢- نصائح الأحباب ، وصحائح الآداب ، وهو موجز للكتاب السابق .
٣- أنداء النديم فى الوصايا والمواعظ والحكم .

وهذه الأشعار ، ترجم بعضها إلى الإسبانية المستشرق إميلو غرثيا غومث [٥] ، تعكس شبهًا قويًا فيما يتصل بموضوعات وأسلوب القسم الرابع من ديوان

---

(١) عن ابن شعيب انظر : درة الحجال ، جـ٢ ، الترجمة رقم (٩٧٥) ، والجزء ١ ، الترجمة رقم (٤٩٤) وهى خاصة بوالده .
(٢) عن ابن فركون انظر : لسان الدين بن الخطيب : الإحاطة : جـ١ / ص ١٥٩ – ص ١٦٣ ، ودرة الحجال : جـ١ / الترجمة رقم (٤٨) .
(٣) عن ابن سهل انظر " درة الحجال ، جـ١ / الترجمة رقم (٥٢٥) ، والدر الكامنة : جـ٤ / ص ١٧٨ ، الترجمة (٤٨٣) .
(٤) عن البلوى انظر : درجة الحجال : جـ١ / الترجمة رقم (٥١٥) .
(٥) إميلو غرثيا غومث : مجلة الأندلس : العدد ٢٧ ، ص١ – ص٧٥ ، ١٩٧٢م .

ابن خاتمة الشعرى ، ومن جانب آخر نقرأ فى السطور الأخيرة من الترجمة التى أوقفها المقرّى على ابن ليون ، أنه : أوقف مدائحه على الرسول فحسب وهى نفس حال ابن خاتمة فى القسم الأول من ديوانه ، وهو يضم قصائد فى ذكر الله تعالى وشكره ، والثناء على نبيه فحسب ، وكلا الأديبين من ألمرية ، وعاشا فى عصر واحد ، وينهلان فى أسلوبهما من نفس المعين ، ويمكن أن نضعهما بين مجموعة من الشعراء والكتّاب أعطوا هذه المرحلة الأخيرة من حياة الأدب الأندلسى طابعه الأدبى المميز .

وقد حفظت لنا كتب التراجم بعض أخبار شيوخ ابن خاتمة ، فهم فى عصرهم من الطبقة الجيدة من أهل العلم وأرباب الفضل وولاة الأمر من كتّاب ووزراء .

واستمر ابن خاتمة فى تحصيله على هؤلاء ، وعلى غيرهم أيضاً ، بما كفل له أن يصبح ذا مركز مرموق وثقافة ناضجة ، وبما هيأه لأن يقعد للإقراء فى مسجد مدينة ألمرية .

وقد تتلمذ عليه عدد كبير من طلاب العلم والمعرفة ، منهم : على بن لسان الدين بن الخطيب (نفح الطيب : ٣٤٠/٢ ، و ٢٧/٢) وأبو جعفر بن زرقالة : (مقدمة مصنّفه : رائق التحلية) وأخو الشاعر المسمى محمد بن خاتمة (النفح : ٢٣٠/٦ ـ ٢٣١ ، والدرر الكامنة لابن حجر العسقلانى : جـ٤/ص٢٠٠ ـ ص٢٠١ ، الإحاطة ، جـ١ / ص١١٤ ـ ص١٢٩) .

ووصف الحضرمى مجلس ابن خاتمة وطريقته فقال : " تصدر الإقراء بالجامع الأعظم بالمرية وعقد مجلسًا للجمهور ، وقيد الكثير ، وصنّف ، طبًا للأمور حسن الإلقاء ، طلق الوجه ، بارًا باخوانه وأصحابه " ، وكان إقراؤه يتناول فنون الأدب واللغة المختلفة ، ففى ترجمة الشاعر الأندلسى ابن الحداد الوادى آشى فى نفح الطيب نقل من الإحاطة قصيدته :

ـ أقبلْنَ فى الحبَراتِ يَقْصُرنَ الخُطا ∴ ويُرينَ فى حُلل الوارَشيْن القطا

وقال : وهى طويلة ، وكتب عليها ابن مؤلف الإحاطة : سمعتها من شيخى أبى جعفر بن خاتمة بألمرية فى سنة خمس وستين وسبع مئة ، قاله على بن الخطيب " . (النفح : ٢٧/٢) وقال ابن الأحمر فى صدر ترجمته له : " إنه كان يُقرئ العربية ، وسائر العلوم بها " ، وهذه عبارة كافية للدلالة على غزارة علمه وشمولها ، وعلى مقدرته وتمكنه .

وعرف له أهل بلده مكانته وقدروا علمه ، فكان يقوم بعقد الشروط وكتب عن الولاة ببلده ، وكان يفد إلى العاصمة غرناطة بين الحين والآخر فى زيادة رسمية أو زيارة شخصية يزور فيها عالمًا أو صديقًا أو وزيراً ، وغير ذلك ، وفى رسائله المتبقية ما يدل على حسن صلته بالطبقة العالية فى المملكة النصرية كلسان الدين بن الخطيب ، وأبى البركات ابن الحاج البلفيقى ، وأبى عبد الله بن شعيب والى قصبة ألمرية وأبى القاسم بن رضوان .

وقد وفد على غرناطة ، فى سنة إحدى وخمسين وسبع مئة عند إعذار الأمراء فى الدولة اليوسفية (أى فى ظل حكم السلطان يوسف بن الأحمر ٧٣٣ ـ ٧٥٥) ،

ومثل هذه الدعوات تقليد قديم فى الأسرة النصرية يحتفلون له ، ويدعون علماء البلاد ووجوهها وشعراءها من أقطارهم المختلفة . (١)

- مولده ووفاته :

من بين الذين ترجموا لحياته ، لم يذكر لنا أى أحد منهم تاريخ ميلاده ، ولكن بروكلمان ، وجيانجوس ، وديرنبورج فى فهرسه ، حددوه بأنه عام ٧١٤هـ - ١٣١٣م ، على حين أن بونس بيوجيس حدده بعام ٧٣٤هـ = ١٣٣٣م - وكلاهما خاطئ دون شك ، ذلك أن ديوانه يحمل تاريخ ٧٣٨هـ = ١٣٣٧م ، وليس ممكنًا أن ابن خاتمة نظمه وله من العمر أربعة أعوام ، ولا حتى أربعة عشر عامًا ، وجاء الخطأ على التأكيد من الخلط بين شاعرنا ابن خاتمة وبين تاريخ أخ له أصغر منه ، يُدعى محمد ابن على بن محمد بن خاتمة الأنصارى ، أبو عبد الله ، وهو الشخص الوحيد من أسرة ابن خاتمة الذى وصلتنا أخبار عنه . (٢)

ويقول ابن الخطيب عن هذا الكاتب الشاعر المريىً إنه : " تأدب بأخيه وتهذب ، وأراه فى النظم المذهب ، وكساه من التفهم والتعليم الرداء المذهب ، فاقتفى واقتدى ، وراح فى الحلبة واغتدى ، حتى نبل وشدى ، ولو أمهله الدهر لبلغ المدى ، وأما خطه فقيد الأبصار ، وطرفه من طرف الأمصار ، واعتبط يانع الشبيبة ، مخضر الكتيبة " . (٣)

ولعل هذا ما يفسر لنا الخلط الذى وقع فى تاريخ الأخوين ، لقد توفى محمد ضحية وباء الطاعون عام ٧٥٠هـ - ١٣٥٠م ، فإذا كان تاريخ مولده عام ٧٢٤هـ ، فذلك يعنى أنه فارق الحياة وهو فى السادسة والعشرين من عمره أو " اعتبط يانع الشبيبة " على حد تعبير ابن الخطيب . وقد أورد له ابن الخطيب بعضًا من قصائده ، تبلغ ثلاث قصائد ، كما أورد له ابن القاضى قصيدة واحدة ، وكلاهما يصرح أنه دُفن فى ألمرية ، فى روضة بنى خاتمة فى روض الحوض . كذلك لم تذكر لنا المصادر تاريخًا مؤكدًا لموته (٤) ، فقد جعله ابن الخطيب فى ترجمته فى الإحاطة فى ١٢ من شعبان ٧٧٠هـ - ٢٢ من مارس ١٣٦٩ التى كتبها له ولما يزل حيًا وطبقًا لما يصرح به شخصيًا .

بينما أحمد بابا التنمبكتى فى " نيل الابتهاج " ، ومثله أحمد عيسى بك فى معجم الأطباء ، يذكران اعتمادًا على الحضرمى كمصدر لهما ، إنه توفى فى ٧ من شعبان ٧٧٠هـ - ١٧ من مارس ١٣٦٩م ، وهو فى الستين من عمره تقريبًا ، كيف نوفق بين هذا التاريخ وبين ما يقوله ابن الخطيب ؟ ومن جانب آخر ، فقد ذكر الجزيرى فى كتابه " غاية النهاية " وطبقاً لمعلومات حصل عليها من تلميذ لابن خاتمة نفسه ،

---

(١) نلمح شيئًا من هذا فى ثنايا كتاب أبى البقاء الرندى ، شاعر القرن السابع الأندلسى ، المسمى : الوافى فى نظم القوافى (ص ٤١ مثلاً) ، مخطوطة ، بمكتبة أحمد تيمور ، رقم ٦٠٣ أدب .

(٢) انظر : درة الحجال ، جـ١ / ص١٩٤ ، الترجمة رقم ٥١٨ ، ونفح الطيب : جـ٨ / ص٣٣٦ - ص٣٣٧ .

(٣) الإحاطة : جـ١ / ٢٧٤ .

(4) Pons Boigues: Ensayo Bio-Bibliografico Sobre los Historiadores Y Geograficos Arabigo – Espanoles (Madrid, 1989).

يُدعى أبا عبد الله محمد بن ميمون [١] ، أنه توفى فى عام ٤٦٨ هـ ، أو ٧٦٩ هـ وله من العمر سبعون عامًا تقريبًا .

وهذا التاريخ يبدو غير ممكن إذا أخذنا فى الحسبان قول ابن الخطيب أنه كان لا يزال حيًا فى ١٢ من شعبان ٧٧٠ هـ - ٢٢ من مارس ١٣٦٩ م .

وفيما يبدو أن رواية الحضرمى أكثر احتمالاً ، ولو أن اليوم الذى حدده وهو السابع من شعبان لا يبدو محتملاً .

أما فيما يتصل بعمر ابن خاتمة فيرى البعض أنه عاش ستين عامًا ، على حين يرتفع بها آخرون إلى سبعين عامًا ، ولا يمكن الجزم بأى منهما ، ومن تاريخ جمع ديوانه ، وهو ٧٣٨ هـ - ١٣٣٧ م يمكن القول بأن الأكثر احتمالاً أن ابن خاتمة رحل عن الحياة وهو فى حوالى السبعين عامًا من عمره .

مما سبق وفى ضوء الأخبار التى أمدنا بها من ترجموا له [٢] ، وبالنظر إلى الموضوعات التى عالجها فى مؤلفاته ، كان ابن خاتمة شاعرًا ، وناثرًا ومؤرخًا ، ورياضيًا وطبيبًا ، وكاتبًا ، ومقرئًا ، وكان له فى المدينة مجلس يتوافد عليه عامة الناس ، وكان جميل الوجه سخيًا مع أصدقائه ، لطيفًا فى لقائه بهم .

- صداقاته :

كانت تربطه صداقة وطيدة بالوزير لسان الدين بن الخطيب ، وأوفى ترجمة نعرفها له ، هى التى أوردها لسان الدين بن الخطيب فى كتابه الإحاطة [٣] ، يقول عنه فى بدء الترجمة التى خصها به " هذا الرجل صدر يُشار إليه ، طالب متفنن ، مشارك ، قوى الإدراك ، سديد النظر ، موفور الأدوات ، كثير الاجتهاد ، معين الطبع ، جيد القريحة ، بارع الخط ، ممتع المجالسة ، حسن الخلق ، جميل العشرة ، حسنة من حسنات الأندلس ، وطبقة فى النثر والشعر ، بعيد المرقى فى درجة الاجتهاد ، وأخذه بطرق الإحسان ، عقد الشروط ، وكتب عن الولاة ببلده ، وقعد للإقراء ، مشكور السيرة ، حميد الطريقة ، فى ذلك كله . [٤]

ويعترف ابن الخطيب بفضله فى بيئة هوت ثقافيًا ، ويصرح بذلك عندما يهدى إليه هذين البيتين :

- قسمًا بالكواكب الزهر ∴ والزهر عاتمة
- إنما الفضل ملة ∴ ختمت بابن خاتمة [٥]

وفى نهاية السطور التى خصه بها فى كتابه الكتيبة الكامنة ، وهى تنضح ودًا وإعجابًا ، أطرى تبحره فى العلم وقرنه بسيبويه فى النحو ، وأشاد بمكانته الأدبية ، وكرر الفكرة السابقة نفسها يقول : " خبا بوفاته الكوكب الوقاد ، وألقى إلى الضالة المهملة المقاد ، واستولى من بعد اليقظة الرقاد ، واستعجل النقاد " . [٦]

---

(١) انظر : غاية النهاية : جـ٢ / ص٢٢٥ .
(٢) انظر : أحمد بابا التنمبكتى : نيل الابتهاج ، القاهرة ، ١٣٥٠هـ ، ص٧٥ .
(٣) لسان الدين بن الخطيب : الإحاطة فى أخبار غرناطة : جـ١ / ص٢٤٧ – ص ٢٦٧ ، تحقيق : محمد عبد الله عنان ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، ١٩٥٥م .
(٤) الإحاطة : جـ١ / ص ٢٤٧ – ص ٢٤٨ .
(٥) الإحاطة : جـ١ / ص٢٦٤ ، والبيتان من بحر الخفيف .
(٦) الكتيبة الكامنة : ص ٢٣٩ ، طبعة إحسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت .

ويقول عنه تلميذه ، وجامع مؤلفاته ، أبو جعفر أحمد بن زرقالة : " فلم يخل كل عصر من شاعر يكون شعراء زمانه عيالاً عليه ، ويحتاج كل منهم إليه ، تنجلى الأيام من نظمه بأنفس من حلا الليالى ، وتثبته فى المعالى ، وكان شاعر عصرنا ببلدنا هذا – عصمه الله – الذى رفع شمس الأدب وضحاها ، ومهّد أرض الشعر ودحاها ، فتنفس عنه صبح البيان ، وانبجس من سحاب علمه قطره الهتّان ، وتمت له قلوب الأدب بحباتها ، وألقت إليه بأفذاذها وثباتها ، فجرى مع الإحسان فى طلق فريد ، وكان له فيه شأو بعيد ، شيخنا المتفنن الجليل ، ما عرف المثيل ، مشيّد بنيان الأدب الذى أسس معالمه ، أبو جعفر بن خاتمة " .[1]

وقد أشار المقرّى إلى الصداقة التى ربطت بين ابن خاتمة وصديقه محمد بن جُزى ، شاعر البلاط فى غرناطة أولاً ، ثم شاعر السلطان المرينى أبى عنان فى فاس من بعد ، وقد توفى فى هذه المدينة عام ٧٥٨هـ - ١٣٥٧م ، وكان هو الذى حرر رحلة بن بطوطة سنة ٧٥٦هـ = ١٣٥٦م ، أى قبل عامين من وفاته ، وقد أورد لنا المقرّى رسالة وجهها ابن خاتمة إلى ابن جُزى ، تغلب عليها الصناعة اللفظية ، وتتزاحم فيها الجمل ذات التورية ، وتستخدم أسلوبًا طالما استخدمه الأدباء العرب فى كل العصور ، ولكنه وجد بين أدباء هذا العصر إقبالاً حميمًا ، ويقول المقرّى ، إنه رد بها على قصيدة رائية كان ابن جُزى قد بعث بها إليه ، ردًا على قصيدة تلقاها منه ، جاءت فى قافية الراء ، وقد حرص ابن جُزى على أن تجئ قصيدته خالية من حرف الراء تمامًا ، لأنه لم يكن يستطيع أن ينطقها صحيحة ، وكان يبدلها غينًا ، وهناك قصيدة أخرى توجه بها ابن جُزى إلى السلطان أبى الحجاج يوسف [2] ، وتؤكد حكاية حرف الراء هذه ، لأن الشاعر استطاع أن يتجنب فيها – وجاءت فى أربعة وثلاثين بيتًا – استخدام أية كلمة تجئ الراء بين حروفها ، ومن جانب آخر ، فإن ابن الأحمر [3] ، أورد لنا رسالة كتبها إلى لسان الدين بن الخطيب ، وليس فيها كلمة واحدة تجئ السين بين حروفها فالأمر كما نرى ، ليس مجرد إبعاد حرف معين لا يستطيع الكاتب نطقه صحيحًا ، وإنما استجابة لذوق خاص ، مغرم بمثل هذه الغرائب .

ومن خلال ابن الخطيب تعرفنا على أن ابن خاتمة كان يتردد على البلاط الغرناطى ، وكان ينظر إليه فى عاصمة بنى نصر على أنه من خيرة الأدباء الذين ازدهروا فى الأندلس ، ومع ذلك لا نراه أبدًا يأخذ بأدنى حظ من السياسة العكرة فى تلك الأيام ، وليس لدينا أية معلومات تجعلنا نشك أن طموحًا ما كان يحركه أو وراء خطاه ، ولكن ذلك لا يعنى أبدًا أنه كان يعيش على هامش الأحداث ، ولقد احتفظ لنا ابن الخطيب والمقرّى بالرسائل التى كان يتبادلها ابن خاتمة مع لسان الدين بن الخطيب ، وهذه الرسائل يمكن أن تُعد نموذجًا للبلاغة المتكلفة التى كان يستخدمها الأدباء على أيامه فى هذا العصر ، وكان ابن خاتمة أحد أعلامه ، وفيها تجئ الأفكار والمعانى ضائعة فى طوفان من ثراء اللغة ، وفيضان الصور ، وجموح

---

(١) ابن خاتمة : رائق التورية فى فائق التحلية : تحقيق سوليداد خيبرت : مجلة المعهد المصرى للدراسات العربية والإسلامية ، المجلد ٢٢ ، ص ١٢٧ ، مدريد ، ١٩٨٣م . وانظر : د. الطاهر مكى : الأدب الأندلسى من منظور إسبانى ، ص ١٦٤ .

(٢) المقرّى : نفخ الطيب : جـ٨ / ص٤٢ – ص٤٣ .

(٣) نثير فرائد الجمان : تحقيق د. محمد رضوان الداية : ص ٣٢١ .

الخيال ، ونعرف من الذين ترجموا له أنه تولى منصب مقرئ فى جامع ألمرية ، وأنه كان كاتبًا ، ويبدو أنه لم يشغل هذا المنصب الأخير لزمن طويل ، وأورد المقرّى أبياتًا تتصل باعتزاله له ، يقول : " ومن نظمه وقد تخلى عن الكتابة ، وطلب إليه أن يعود فأبى وأنشد :

- تقضّى فى الكتابة لى زمان ∴ كشاة العبدِ ينتظر الكتابهْ
- فمنَّ الله من عتقى بما لا ∴ يطيقُ الشكر أن يملا كتابه
- وقالوا : هل تعود فقلت : كلاَّ ∴ وهل حرٌّ يعود إلى الكتابة [1]

وكما نرى ، يبدو أن ابن خاتمة لم تكن لديه أية رغبة فى أن ينضم أو يشغل أية وظيفة ، وتعكس قصائده النبرة نفسها ، فلا يطل من بينها ملق أو مديح أبدًا ، والغرض الجوهرى منها دائمًا الحصول على العطاء ، أو الوصول إلى مكان مرموق ، والأخبار القليلة المتصلة بأحداث حياته جاءتنا ملفوفة فى فيض جارف وقطيع من الصور البلاغية المعقدة . [2]

- آثاره :

١- الديوان : اختار الذين ترجموا لابن خاتمة نماذج متفرقة من شعره ، وأشاروا إلى ديوان شعره الذى كان مرغوبًا فى زمانه ، فهو جمع شعره فى ديوان صنعه بنفسه وكتبه بخط يده سنة ٧٣٨ بناء على رغبة نفر من أصحابه وأصدقائه .

وفى كتاب (فائق التورية) الذى جمعه تلميذه ابن زرقاله أن رئيس الكتّاب أبا القاسم عبد الله بن رضوان طلب من صديقه ابن خاتمة ديوان شعره ، وكان بينهما فى ذلك مطارحه شعرية ، وقد وصل إلينا ديوان ابن خاتمة بخط يده [3] ، وهى النسخة التى صنعها سنة ٧٣٨ ، ووصلت نسخة أخرى مغربية . ومخطوطته فى الإسكوريال تحمل رقم (٣٨١) فى فهرسة دير نبورج ، ومخطوطة المغرب فى المكتبة الوطنية بالرباط تحمل رقم (٢٦٩ك) .

٢- ومن مؤلفاته : تحصيل غرض القاصد فى تفصيل المرض الوافد : تحدث فيه عن الطاعون الجارف الذى اجتاح العالم سنة ٧٤٩ ، ونعرف له نسخة واحدة .

ومحتوى هذا الكتاب يمتد إلى التاريخ والطب ، وفيه يدرس ابن خاتمة العدوى وأسبابها بعامة ، ومرض الطاعون الأسود الشهير الذى اجتاح مدينة ألمرية عامى ٧٤٩ ، ٧٥٠هـ = ١٣٤٨م ، ١٣٤٩م بخاصة حيث تسبب فى موت أعداد مريعة من السكان ، وفضلاً عن قيمة الكتاب من الوجهة الطبية ، له أهمية بالغة فيما يتصل بالمعلومات التى يقدمها عن مسقط رأس المؤلف ، وله

---

(١) الإحاطة : جـ١ / ص٢٤٩ ـ ص٢٥٢ ، ص٢٦١ ـ ص٢٦٨ ، ونفح الطيب : جـ٨ / ص١٤٥ ـ ص١٤٨ .

(٢) الأبيات من بحر الوافر ، وهى تتضمن تورية ، ويمكن أن تفهم الكتابة على معنين ، الكتابة : وهى الوظيفة الإدارية المعروفة ، أو الاتفاق على أن يسترد حريته من كان رقيقًا مقابل شىء .

(٣) قامت سوليداد خيبرت بتحقيق ديوان ابن خاتمة ونشرته فى مجلة قسم الدراسات العربية والإسلامية بكلية اللغات جامعة برشلونة ، ١٩٧٥م .

مخطوطتان ، واحدة فى مكتبة دير الإسكوريال ورقمها فى فهرس ديرنبورج ١٧٨٥ ، والثانية فى المكتبة الإمبراطورية فى برلين تحت رقم ٦٣٦٩ . وقد قام د. طه دنانة بترجمته إلى اللغة الألمانية فى مجلة *Arch Fur Gesh de Med* المجلد ٢٠ عام ١٩٢٦ ص٢٧ – ص٨١ .

وعن النص الألمانى قام الصيدلى خوسيه فرناندیث مرتينت من مدينة ألمرية ، بترجمة الجانب الطبى منه ، فى مجلة " الحاضر الطبى *Actualidad-Medica*" ، التى تصدر فى غرناطة العدد رقم ٤٠٣ ، الصفحات ٤٤٩ – ٥١٢ ، والعدد رقم ٤٠٤ ، الصفحات ٥٥٦ – ٥٨٨ ، عام ١٩٥٨م . (١)

٣- ومنها كتابه الكبير : مزيّة ألمريّة على غيرها من البلاد الأندلسية ، ذكره غير واحد ممن ترجموا لابن خاتمة ، ونقل منه المقرّى فى نفح الطيب ، وأزهار الرياض نقولاً كثيرة ، وقال إنه كانت لديه منه نسخة بالمغرب ، والكتاب مفقود ، ومن النُّقول عنه نستطيع أن نعرف منهجه ومقصده فهو على شاكلة المؤلفات فى تواريخ المدن ، من حديث موقع المدينة وتاريخها وحضارتها ورجالها والطارئين عليها ، وذكر شعرائها وكتابها ، وكتاب الإحاطة لمعاصره لسان الدين نموذج حى لهذه المصنّفات الكبيرة فى الأندلس .

٤- ومنها جزء سمّاه : إلحاق العقل بالحس فى الفرق بين اسم الجنس وعلم الجنس ، وكذا نقل أحمد بابا فى نيل الابتهاج عن الحضرمى فى فهرسته ، ولا أعرف أحدًا ذكره غيره ، وهو مفقود .

٥- كتاب رائق التحلية فى فائق التورية : جمع فيه تلميذ الشاعر أبو جعفر أحمد بن على بن زرقاله ما يتصل بالتورية من شعر أستاذه ابن خاتمه ، كما نقل عن شيخه مناسبات تلك المقطوعات وملابساتها ، والنسخة فريدة على جانب من الأهمية ، لأنها بخط أحد أصدقاء المصنّف ، وعليها إجازة من ابن خاتمة لأحد تلاميذه ، والنسخة مما وقع فى نوبة أمير المسلمين أبى عنان المرينى المغربى ملك دولة بنى مرين بالمغرب الأقصى ، الذى توفى سنة ٧٥٩ . (٢)

والكتاب يحتوى على مجموع من الأشعار لابن خاتمة ، تلقها عنه سماعًا تلميذه ابن زرقالة ، وجمعها فى كتاب ، وتوجد له ثلاث مخطوطات : واحدة فى الإسكوريال ، تحمل رقم (٤١٩) فى فهرس ديرنبورج ، والثانية فى المكتبة الوطنية فى باريس ، تحت رقم (٥٧٤٩) فى فهرس بلوشيه ، والثالثة فى الخزانة العامة فى الرباط تحمل رقم (١٨٢٦) ، فى فهرسها الذى صدر عام ١٩٧٥٨ .

٦- ونشر المستشرق الفرنسى (ج. كولان) فى (مجلة هسبيريس) كتابًا مختصرًا لمؤلف مجهول ، انتقى مادته من كتاب (إيراد اللآل من إنشاد الضوال) الذى ألفه أبو جعفر أحمد بن على بن خاتمة الأنصارى ، والكتاب الموجود ، المنتقى من كتاب

(١) د. الطاهر مكى : الأدب الأندلسى من منظور إسبانى ، ص١٨٣ – ص١٨٤ ، طبعة مكتبة الآداب ، القاهرة ، ١٩٩٠م .

(٢) راجع مثلاً خبر عناية السلطان أبى عنان بشعر التلمسانى المقتول سنة ٧٠٨ فى أزهار الرياض للمقرى : ٣١٦/٢ .

ابن خاتمة ، وهو من الكتب التى اهتمت بظاهرة (لحن العامة) وهو نص صغير نسبيًا ، فقد شغل ما بين ٨ : ٣٢ من صفحات المجلة .

وذكر كولان فى مقدمة نشرة الكتاب أن ابن هشام اللخمى – نزيل سبتة – كان ألفَ كتابه فى (لحن العامة) – وهو كتاب المدخل إلى تقويم اللسان وتعليم البيان – ثم جاء بعده محمد بن هانئ اللخمى السبتى (المتوفى سنة ٧٣٣) فوضع كتابه (إنشاد الضوال وإرشاد السؤال) فرتب كتاب ابن هشام وعلق عليه .

ثم وضع الأديب الأندلسى أبو جعفر أحمد بن على بن خاتمة الأنصارى كتاب : إيراد اللآل من إنشاد الضَّوال ، قال المرحوم الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب فى مقدمة (الجمانة فى إزالة الرَطانة) : إن كتاب ابن خاتمة هذا " يعدَ كالاستدراك على كتاب ابن هانى السبتى " .[١]

وجاء أخيراً ، وفى المنزلة الرابعة من هذه السلسلة ، مؤلف مجهول فانتقى من كتاب ابن خاتمة ذلك الجزء الذى نشره كولان *G. S. Colin* .[٢]

ولا يقع اسم أبى جعفر أحمد بن على بن خاتمة الأنصارى الأندلسى فى القرن الثامن على غير شاعرنا ذاته ، فهو إذن ألف كتابًا فى موضوع (لحن العامّة) ، فُقد فيما فقد من مؤلفات ، غير أن المنتقى منه ، صنعه بعض اللغويين أو النحويين المجهولى الاسم ، ووصل إلينا ، وهو الجزء الذى نشره المستشرق المذكور ، ولم ينسب أحد ممن ترجم لابن خاتمة – فى المصادر التى رجعنا إليها – كتابًا بهذا الاسم .

ويلفت نظر الباحث أن كولان ، وتابعه محقق الجُمانة ، جعل ولادة ابن خاتمة سنة ٧٢٣ ، وتاريخ مولده بهذا الزمن يلفت النظر ، مما جعل بروكلمان فى تاريخه يضع إشارة استفهام بعد هذا التاريخ *(724?)* ، وهو يذكر أن ابن خاتمة صنع ديوانه سنة ٧٣٨ .

٧- رسالة : الفصل العادل بين الرقيب والواشى والعاذل ، نشرتها أول مرة سوليداد خيبرت [٣] أيضًا .

وهى رسالة صغيرة فى أسلوب مسجوع ، للتمييز بين أعداء العشاق : الرقيب والواشى والعاذل ، ومخطوطة هذه الرسالة فى باريس ، تلى نص مخطوطة الكتاب رقم (٥٧٤٩) ، وقد نشرت هذه الرسالة سوليداد خيبرت وترجمتها إلى اللغة الإسبانية ، فى مجلة الأندلس ، المجلد ١٨ ، عام

---

(١) الجمانة فى إزالة الرطانة : لمؤلف مجهول ، حققه الأستاذ المرحوم حسن حسنى عبد الوهاب ، طبع القاهرة ، ١٩٥٣ .

(2) Hesperis , Annee 1931, Tome XII.

(3) Soledad Gibert: Sobre los: Enemigos de los Amantes, Al-Andalus de Madrid Y Granada V. XVIII, 1953.

١٩٥٤ ، والصفحات ١ ـ ١٦ . كما قام بنشرها بعد ذلك د. محمد رضوان الداية .[١]

- الحياة السياسية والثقافية :

جرت حياة ابن خاتمة بين أعوام ٧٠٠هـ = ١٣٠٠م و ٧٧٠هـ = ١٣٩٦م أو إن شئت شغلت قمة القرن الثامن الهجرى ، الرابع عشر الميلادى ، وكانت الأحداث السياسة فى هذه الفترة من أشد أحداث المملكة النصرية اضطرابًا ، وكان المناخ فى غرناطة شديد الشبه جدًا بما كان عليه فى قشتالة نفسها [٢] ، وإذا ألقينا نظرة سريعة على هذه الفترة وجدنا فيها :

مملكة محمد الثالث ، وسياسته الاستعمارية ، وتدخل المرينيين ، ثم حكومة بنى نصر (١٣٠٩ ـ ١٣١٤م) واحتلاله مدينة سبتة ، حاصر فرناندو الرابع فى أيامه مدينة الجزيرة الخضراء واستيلاءه على جبل طارق ، وفى هذا التوقيت أيضًا حاصر خايمة الثانى مدينة ألمرية ، وهو حادث لابد أن يكون ابن خاتمة تعرف عليه ولما يزل صبيًا ، وحكومة إسماعيل الأول (١٣١٤ ـ ١٣٢٥) والتدخل فى سياسة الأميرين ، خوان وبدور الوصى على ألفونسو الحادى عشر ، وعصر محمد الرابع (١٣٢٥ ـ ١٣٣٣م) ، الذى اغتيل بعد أن احتلت قوات ألفونسو الحادى عشر جبل طارق ، والأحداث الهامة التى وقعت فى سنوات أبى الحجاج يوسف (١٣٣٣ ـ ١٣٥٤م) ومحمد الخامس (١٣٥٤ ـ ١٣٩١م) ، وأدرك ابن خاتمة سنوات مملكة فى قمة نضجها ، إنه العصر الذى حدثت فيه وقيعة طريف ، أو معركة سلاو كما تسميها المصادر الإسبانية ، وحصار جبل طارق ، وشهد موت ألفونسو الحادى عشر ضحية وباء الطاعون ، الذى وصفه لنا ابن خاتمة فى رسالة من أشهر مؤلفاته وهو بعنوان " تحصيل غرض القاصد فى تفصيل المرض الوافد " ، وشهد ابن خاتمة ألوانًا من النضال ومن الاضطرابات ومن الرذائل فاض بها عصر محمد الخامس ، وقد عزله عن العرش أخوه إسماعيل ومحمد البرميخو (١٣٥٩ ـ ١٣٦٢م) ، ونُفى محمد الخامس إلى المغرب ، ثم عودته مع وزيره لسان الدين بن الخطيب ، كان عصر كفاح ومناخًا فياضًا بالانفعال ، وفيه ارتفعت الحمراء ، وبنى بدور القاسى قصره *Alcazar* فى إشبيلية ، وبدا ألأدب الأندلسى على الرغم من توهج أشكاله اللامعة ، المطرزة بألوان البلاغة الفخيمة يأخذ طريقه نحو الانحدار والسقوط فى وضوح ، وولد الأدب القشتالى ، وكان متأثرًا بالأدب العربى على نحو قوى عميق ، ومن أبرز أعلامه : " كاهن هيتا [٣] ، وبيرو لوبث دى أيالة ، ودون خوان منويل ، وسام توب دى كاريون " .

---

(١) ديوان ابن خاتمة الأنصارى ، ورسالة الفصل العادل بين الرقيب والواشى والعاذل ، تحقيق : د. محمد رضوان الداية ، دار الفكر المعاصر ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٤م .

(2) Rachel Arvie, Espana Muslimana en la epoca Nasiri (1232- 1492), Paris, 1973.

- ولدراسة عصر محمد الخامس انظر : مملكة غرناطة فى عصر محمد الخامس ، لأحمد مختار العبادى ، مدريد ، ١٩٧٣م .

(٣) لمعرفة المزيد عن كاهن هيتا : انظر ، د. الطاهر مكى ، دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة ، الطبعة الثانية ، ص٣٤٢ ـ ص٣٤٣ ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ١٩٧٧م .

- بيرو (أوبدور) لوبث دى أيالة (١٣٣٢ ـ ١٤٠٧) رجل دولة ، وأديب إسبانى ، وله كتاب " تاريخ قصر " *Rimado de Palacio*

فى هذا المناخ السياسى والثقافى الدقيق ، أين يمكننا أن نضع ابن خاتمة ؟ من المعلومات التى أوردها ابن الخطيب عن ابن خاتمة تعرفنا على إنه كان يتردد على البلاط الغرناطى ، ولكن مع ذلك لم يتضح أن شاعرنا كانت لديه طموحات سياسية ، ولكن ذلك لا يعنى أبدًا أنه كان يعيش على هامش الأحداث .

وإن كان قد وصلنا أخبار متصلة بأحداث حياة ابن خاتمة ، إلا إنها جاءت قليلة وملفوفة فى فيض جارف وقطيع من الصور البلاغية المعقدة .

وقد ذكر ابن الخطيب فى إحاطته بعض الأشعار ورسالة كان كتبها إلى ابن خاتمة ، بعد زيارة حاشية السلطان إلى ألمرية ، وكان ابن الخطيب يرافق السلطان ، وعبّر ابن خاتمة عن بهجته بلقائه [1] ، والرسالة تحمل تاريخ ١٠ من ربيع الأول ٧٤٨هـ = ٢٠ من يونيه ١٣٤٧م ، وأورد ابن الخطيب بعدها طائفة من أشعار ابن خاتمة ، بلغت فى مجموعها إحدى عشرة بين قصيدة ومقطوعة ، وبعض هذه القصائد لم يرد فى ديوان خاتمة .

ويشير ابن الخطيب بعدها كيف أن ابن خاتمة عقب انصرافه من غرناطة ، فى بعض زيارته عليها ، حضر مجلسًا فى منزل ابن الخطيب ، وكتب إليه ببعض الأشعار التى نظمها بعض ممن كانوا بالمجلس ، ولم يذكر من هو هذا الشخص ، وربما يكون ابن خاتمة نفسه ، وفى هذه الأبيات يصف قصر ابن الخطيب فى منطقة " عين الدمع " من غرناطة [2] ، وفى المكان نفسه ومازلنا مع رواية ابن الخطيب ، دُعى إلى طعام مع جماعة من الأصدقاء ، وكان من بينهم شيخه أبو البركات البليفيقى ، الذى اعتذر عن الأكل بأنه صائم ، قد بيته من الليل ، وعندها نظم ابن خاتمة هذه الأبيات :

- دعوْنا الخطيبَ أبا البركاتِ ∴ لأكل طعام الوزير الأجلْ
- وقد ضمنّا فى نداه جنانُ ∴ به احتفل الحسنُ حتى كملْ
- فأعرض عنّا لعُذر الصيامِ ∴ وما كل عُذرٍ له مستقلْ
- فإن الجنانَ محلّ الجزاءِ ∴ وليس الجنانُ محل العملْ

- خوان منويل (١٢٨٢ – ١٣٤٨م) حفيد الملك ألفونسو العاشر ، الملقب بالعالم ، وكان سياسيًا وكاتبًا ، ومن أشهر مؤلفاته " الكوندى لوكارنو " وهى مجموعة من الحكايات ، متأثرة بالأدب العربى فى جانب منها ، وترجمة حرفية لنصوص عربية فى جانب آخر .
- سام توب ، يهودى ، كان ربانًا ليهود كاريون ، وعاش فى حماية بدور الأول ملك قشتالة ، والف : " أمثال خلقية " ، أو نصائح ومواعظ للملك بدور " وهى مقتبسة فى جملتها من العربية ، انظر : د. الطاهر مكى : الأدب الأندلسى من منظور إسبانى ، مكتبة الآداب ، ١٩٩٠م .

(1) Soledad Gibert, El Diwan, de Ibn Jatima de Almeria, Barcelona, 1975.

(٢) عن رحلة ابن الخطيب إلى ألمرية برفقه السلطان أبى الحجاج يوسف ، انظر مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب فى بلاد المغرب ، نشرها : د. أحمد مختار العبادى ، ص٢٧ – ص٣٥ ، الإسكندرية ، ١٩٥٨م .

وعندما انتهوا من الطعام أنشد الأبيات إلى شيخه ، فقال له : " لو أنشدتنيها وأنتم لم تفرغوا منه ، لأكلت معكم برًا بهذه الأبيات ، والحوالة فى ذلك على الله تعالى" . (١)

ونجد فى نهاية ترجمة ابن الخطيب لابن خاتمة أورد لنا رسالتين : الرسالة الأولى أرسلها ابن خاتمة إلى ابن الخطيب نفسه ، والثانية جاء بها الرد من ابن الخطيب لابن خاتمة ، ويشير ابن الخطيب إلى أن ابن خاتمة كتب هذه الرسالة عندما قرر ابن الخطيب الخروج من الأندلس متوجهًا إلى الحج ، وهى رسالة طويل متكلفة ، مليئة بالتوريات والاستعارات ، وألوان من البديع ، وفيها يحاول ابن خاتمة أن يثنى صديقه ابن الخطيب عن إصراره فى الانقباض عن العمل ، والتيه على السلطان والدولة .

ويتضح من هذه الرسالة ، أن ابن خاتمة لم يكن مولعًا بالرحلات ، وكان قد سجل فى بعض المناسبات كراهيته للبعد عن وطنه : " وما فارق ذوو الأحلام ، وألو الأرحام ، مواطن استقرارهم ، وأماكن قرارهم ، إلا برغمهم واضطرارهم " ، وورد فى نفح الطيب ، ورائق التحلية ، أنه حاول أن يصرف شيخه أبا البركات عن رحلة إلى المشرق ، ولا يُعرف عنه أنه غادر الأندلس أبدًا ، وعندما ترك صديقه ابن الخطيب الأندلس إلى المغرب ، كتب إليه أن يعود إلى وطنه ، وجاءت رسالته طافحة بالأساليب البلاغية المتكلفة إلا أنه من بين هذه الأساليب ظهرت بعض الجمل المعبرة التى يحاول فيها أن يقنع صديقه :

" إنكم بهذه الجزيرة شمس أفقها ، وتاج مفرقها ، وواسطة سلكها ، وطراز ملكها ، وقلادة نحرها ، وفريدة دهرها ، وعقد جيدها المنصوص ، وتمام زينتها على العموم والخصوص ، ثم أنكم مدار أفلاكها ، وسر سياسة أملاكها ، وترجمان بيانها ، ولسان إحسانها ، أو طب مارستانها ، والذى عليه عقد إدارتها ، وبه قوام إمارتها ، فلديه يحل المشكل ، وإليه يُلجأ فى الأمر المفصل ... " .

وبعد عدة جمل شجعه فيها على العودة إلى الوطن بنفس أسلوب الرسالة المتكلف ثم يثنى على الأندلس وعلى الرغم من أن ثناءه جاء موجزًا إلا أنه يمكن أن يُضاف إلى النصوص التى تمثل " قومية شعراء الأندلس " ، يقول : " ومتى توازنَ الأندلس بالمغرب ، أو يعوض عنها إلا بمكة أو يثرب ؟ ما تحت أديمها أشلاء أولياءٍ وعبّاد ، وما فوقه مرابُط جهادٍ ، ومعاقد ألوية فى سبيل الله ، ومضارب أوتاد ، ثم يبوّئ ولده مبوأ أجداده ، ويجمع له بين طارفه وتلاده ، أعيذ أنظاركم المسددة من رأى قائل ، وسعى طويل لم يحل منه بطائل ، فحسبكم من هذا الإياب السعيد ، والعود الحميد " .

وجاء رد ابن الخطيب على ابن خاتمة ويبدو فى رده ، وقد خاب أمله فى العالم، وأسلوبه فى رسالته لا يختلف بل يكاد يطابق الأسلوب الذى استخدمه ابن خاتمة تمامًا ، واستهلها بهذين البيتين من الشعر يقول :

---

(١) نفح الطيب : جـ٨/ ص٣٦ – ص٣٨ ، طبعة محى الدين ، والتكملة الكاملة ، ص٢٤٤ ، طبعة إحسان عباس .

- لـمْ فـى الهـو العُـذرى أو لا تلـم ∴ فالعـــذْلُ لا يـــدحلُ أســـماعى
- شـــأنك تعنيفـــى وشـــأنى الهـــوى ∴ كـــلّ امـــرئ فـــى شـــأنه ســـاعى[1]

أما فيما يتصل بدعوته كى يعود إلى الأندلس ، فيبدو أن ابن الخطيب لم يقتنع بها ، والمعلومات التى وردت فى كتاب " رائق التحلية " ولها صلة بترجمة ابن خاتمة محدودة وقليلة .

بعد هذا العرض الذى تناولنا فيه مفهوم التورية اللغوى والاصطلاحى عند علماء البلاغة ، ثم عرجنا نحو التعريف بابن خاتمة وعصره وحياته وآثاره الأدبية يجدر بنا أن نلقى بعض الضوء على محتوى الكتاب ، فعندما نمضى مع ابن خاتمة فى كتابه ، نجد أن الكتاب قد احتوى على مجموعة من الأشعار لابن خاتمة نفسه .

ومن الملاحظ أن استخدام هذا اللون الطافح من التوريات ، وفنون البديع الأخرى التى وردت فى الكتاب ، لم يكن قاصرًا على ابن خاتمة وحده ، وإنما وجدناه عند أدباء آخرين فى ذلك العصر ، ويبدو أنه لاقى إقبالاً حميمًا لديهم من أمثال : لسان الدين بن الخطيب ، ابن الأحمر ، ابن جُزى ، أبى البركات البليفيقى ، وغيرهم كثير .

وقد يكون السبب وراء شيوع هذا اللون من الأسلوب المتكلف [2] لدى ابن خاتمة وغيره من شعراء عصره ذلك الوضع السياسى الدقيق فى تلك الأيام الأخيرة لغرناطة بنى نصر ، مما أدى إلى شيوع ذوق أدبى يتميز بالغموض . إلا أن التورية فى شعر ابن خاتمة بشكل عام وفى هذا الكتاب بشكل خاص رغم كثرتها لم تكن فى مجال النقد السياسى ، ولكنها تظهر فى مداعباته ، وإخوانياته ، وبشكل خاص فى مقطوعاته الغزلية التى اشتملت على أكبر قدر من الأبيات الواردة فى كتاب رائق التحلية .

ونعرف عن طريق ابن الخطيب ، أن ابن خاتمة كان يتردد على البلاط الغرناطى، وكان يُنظر إليه فى عاصمة بنى نصر على أنه من خيرة الأدباء الذين ازدهروا فى الأندلس ، ومع ذلك لا نراه أبدًا يأخذ بأدنى حظ له من السياسة .

وأن المعلومات التى توفرت لدينا تجعلنا نشك فى أن طموحًا ما كان يحركه أو وراء خطاه ، وكما يبدو أن ابن خاتمة لم تكن لديه رغبة فى أن ينضم أو يشغل وظيفة ، وقد عكست لنا قصائده سواء فى هذا الكتاب أو فى ديوانه الشعرى النبرة نفسها ، فلا يطل من بينها ملق ، ولا مديح أبدًا ، وإن كان الهدف من قصائد المديح عند الشعراء هو الحصول على العطاء ، أو الوصول إلى مكان مرموق .

ومن هنا كان يجب علينا أن نتعرف على لغة الشعر فى عصر ابن خاتمة – لاسيما وأن اللغة هى الأداة الأساسية للشعر – لعلنا نتوصل إلى الأسباب التى أدت إلى شيوع هذا اللون من البديع ، ومن خلال المعلومات التى توفرت لدينا ، وجدنا أن كل من تناولوا ابن خاتمة من القدامى أو المحدثين ، أجمعوا على أن لغة الشعر فى هذه الفترة التى عاشها شاعرنا لم تبلغ مستوى جماليًا عاليًا آن ذاك ، كما أن كتب التأريخ والأدب

---

(١) الاحاطة : جـ١ / ص٢٦٣ .

(2) Celia del Moral Molina: (Tawriyasen El Reino Nazari), Miscelanea de Estudios Arabes Y Hebraicos, Universidad de Granada, Volumen XXXIV- XXXV Fasciculo 1°.

لهذا العصر [١] توضح كثرة الشعراء والكتّاب فى هذا الوقت ، كما توضح أيضًا تواضع مستواهم ، بحيث لا نكاد نلتقى بشاعر كبير كأعلام الشعراء الذين وجدوا فى المشرق .

وكما لاحظ القدماء ذلك فقد عللوا لملاحظتهم تعليلاً نراه مقبولاً ، ونضيف إليه تعليلاً آخر ، فقد ذهبوا إلى أن الشعراء فى تلك الفترة لم يتخصصوا بالشعر ، ولم يخلصوا له ، ولم ينقطعوا لنظمه دون سواه من فنون القول الأخرى ، وشاعرنا واحد من أولئك ، فقد كان ابن خاتمة شاعرًا وكاتبًا ومؤرخًا فى آن واحد ، شأنه فى ذلك شأن أستاذه أبى البركات البليفيقى ، وصديقه لسان الدين بن الخطيب ، ومعاصره ابن الأحمر ، وشهرة هؤلاء جميعًا بالشعر تساوى شهرتهم فى الكتابة ، بل أن بعضهم أشتهر بالكتابة أكثر من شهرته بالشعر .

وخلاصة التعليل أن هؤلاء القوم من الشعراء الكتّاب أو الكتّاب الشعراء بحكم وجودهم التأريخى فى هذه الفترة ، وبحكم مواقعهم السياسية والثقافية فى مجتمعاتهم لم يتخذوا الشعر فنًا لوجه الفن ، وإنما اتخذوه وسيلة بأيديهم إلى المناصب ، ووجدوا فى نظمه سمة من السمات اللازمة لأصحاب المناصب الرفيعة ، سواء رزقوا موهبتها أو حرموا منها ، ولذلك شاع التكلف فى الشعر وكثر استخدام الصناعات اللفظية من جناس، وطباق ، ومقابلة ، وتورية .

وأصبح الشعر من مكملات الثقافة لدى الأديب أو الفقيه أو الطبيب أو المؤرخ ، حتى أن ابن خلدون يعترف بذلك فيذكر أنه أخذ نفسه بقول الشعر ، وأكرهها عليه مرغمة حيث يقول : " ثم أخذت نفسى بالشعر فانثال علىّ منه بحور وتوسطت بين الإجادة والقصور " [٢] ، كما اعترف ابن الخطيب بشىء قريب من هذا . [٣]

أما التعليل الثانى الذى يمكن أن نضيفه إلى ما تقدم هو أن هؤلاء الشعراء قد عاشوا فى القرن الثامن الهجرى فى الأندلس ، وهو عصر إحياء أدبى لقى فيه الأدباء رعاية وتشجيعًا من الحكام والقادة ، بل أن كثيرًا من ملوك الأندلس والمغرب كانوا يقولون الشعر ويتذوقونه ويناقشونه ، إلا أن هذا الإحياء لم يُقدر له أن يؤتى ثماره لاقتراب الحياة السياسية إلى الانهيار وكثرة الانتفاضات والهزات التى سادت هذا القرن الأخير من حياة المسلمين فى الأندلس ، وكان هذا مؤشرًا هامًا من مؤشرات التراجع الأدبى وهو أمر لابد أن يقترن بالضرورة بضعف مستوى اللغة ، وهى الأداة الأساسية لفن الشعر . وقد ترتب على هذا الوضع أن نزل الشعر فى أغراضه المختلفة من قممه الشامخة إلى سفوح ووهاد ، تمثلت فى صغائر الأمور وتوافه الأشياء كوصف فاكهة ، أو زجاجة عطر ، أو تقريض شعر أو حفلة إعذار .

كما فرض شعر المناسبات نفسه كالأعياد والمواسم والاحتفالات السياسية ، وهى مناسبات من شأنها أن تفرض على الشاعر أن يقول – رغبًا أو رهبًا – شعرًا لا

---

(١) انظر : الإحاطة ، والكتيبة الكامنة ، ونثير فرائد الجمان ، ونثير الجمان لابن الأحمر .

(٢) ابن خلدون : التعريف بان خلدون ورحلته شرقا وغربًا ، ص٧٢ ، تحقيق : محمد بن تاويت ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٥١ .

(٣) ابن الخطيب : ديوان الصيب والجهام والماضى الكهام ، ص٣٧٨ ، تحقيق : د. محمد الشريف قاهر ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، ١٩٧٣م .

يصدر عن دخيلة نفسه فى معظم الأحيان ، ومثل هذا الشعر الذى لا يصدر عن نفس الشاعر من شأنه أن يمتلئ بالتكلف ، وأن يصطبغ بصبغة الصنعة ، ويفتقر إلى التجديد والابتكار ، الأمر الذى يُلجئ الشاعر إلى اجترار ما قاله الشعراء السابقون ، بخفوت حينًا وبقوة وذكاء أحيانًا أخرى ، ووفقًا لثقافة الشاعر وموهبته وخياله وإحساسه .

وكان طبيعيًا – وابن خاتمة – أحد هؤلاء الشعراء الكتَّاب أن ينظم الشعر متكلفًا له ، كما فعل صديقه ابن الخطيب .

ويبدو أثر التكلف واضحًا فى شعره لاسيما الذى يرجع إلى مرحلة الحداثة ، بينما يتسم شعره المتأخر برقى مستواه اللغوى ، ويعسكه ثقافته التى حصلها وطورها باطلاعه الواسع وحفظه لعيون الشعر على مر العصور ، وتدل آثاره التى بقيت من بعده على تعدد جوانبه وإلمامه بفروع المعرفة ، كالفلسفة ، والطب ، والتاريخ والأدب ، واللغة والنحو ، والفقه ، فضلاً عن ديوانه وكتبه .

نخلص من ذلك أن هذا التمرس بفروع العلم والمعرفة ، وحصيلة الثقافة التى كونها فى حياته من شأنهما أن يؤثرا على لغة الشاعر عندما يقرض الشعر وقد وضح هذا الأثر بشكل يستوقف النظر فى توريات ابن خاتمة المختلفة ، التى كادت أن تكوّن ظاهرة لغوية من ظواهر شعره إذ عرج فيها على مصطلحات العلوم والفنون المختلفة .

فمن الظواهر التى لاحظناها فى توريات ابن خاتمة فى هذا الكتاب هى ميله الشديد إلى استعمال ألفاظ ومصطلحات العلوم فى غير موضعها موريًا لمعنى آخر كالغزل ، والمدح ، والحكمة ، والوصف . ففى الغزل – وقد احتل النصيب الأكبر من القصائد الواردة فى الكتاب – نجده استخدم مصطلحات علم النحو ، وبعض الخصائص الإعرابية من خفض وجر ونصب ، كذلك أتى على بعض مصطلحات علم العروض واستخدم أسماء بعض بحور الشعر ، ومثال لذلك قوله :

- فزد كل يوم جمالاً وحسنًا ∴ فعلىَ كلُ يوم غرام مزيد
- خضوعٌ طويل ، ودمعٌ سريع ∴ وخررٌ بسيط وشجو مديد

فالتورية فى هذا الشاهد جاءت فى البيت الثانى فى الكلمات الآتية : [طويل – سريع – بسيط – مديد] .

فكلمة طويل معناها القريب : الخضوع الممتد من الشاعر للمحبوب ، وهذا هو المعنى الموري به .

أما المعنى الثانى البعيد وهو الموري عنه فهو اسم بحر من بحور الشعر العربى المتنوعة النغم يسمى الطويل ويأتى على وزن :

[فعولن – مفاعيلن – فعولن – مفاعيلن ∴ فعولن – مفاعيلن – فعولن – مفاعيلن]

أما كلمة سريع فمعناها القريب هو سرعة البكاء وزرف الدموع بشكل سريع وأما المعنى البعيد وهو الموري عنه فهو اسم بحر من بحور الشعر يسمى السريع ويأتى على وزن :

[مستفعلن مستفعلن فاعلن ∴ مستفعلن مستفعلن فاعلن]

وكلمة بسيط معناها القريب : الفرح البسيط والمعنى البعيد هو اسم بحر من بحور الشعر العربى يسمى البسيط ويأتى على وزن :

[مستفعلن فاعلن مستفعلن فعلن ∴ مستفعلن فاعلن مستفعلن فعلن]

وكذلك كلمة مديد معناها القريب : امتداد وطول حزن الشاعر ، وأما المراد بالمعنى الثانى فهو بحر المديد وهو اسم بحر من بحور الشعر العربى ، ويأتى على وزن :

[فاعلاتن فاعلن فاعلاتن ∴ فاعلاتن فاعلن فاعلاتن]

كما ورى ابن خاتمة بأسماء أعلام رواة الحديث النبوى الشريف ، وأئمة المذاهب والقراءات . ومن ذلك قوله :

- من شافع لى عند مالك مهجتى ∴ مالى سوى حُبى ولىس بنافع [1]
- فمن المحقق أن مذهب مالكى [2] ∴ لا تستقيم لديه حُجة شافعى [3]

ولعل هذه التوريات التى أبدى لها ابن خاتمة اهتمامًا واضحًا كانت تحمل إحساسًا بالرغبة فى الظهور بمظهر العالم ، والكشف عن حصيلته العلمية ، وسعة ثقافته ، وهو قبل ذلك تقليد عرفه الشعر الأندلسى فى الفترة المتأخرة من ذلك العصر الذى لجأ فيه الشعراء إلى التصنع فى أشعارهم .

أما بالنسبة لتحقيق الدكتورة سوليداد خيبرت للكتاب فقد جانبها الصواب فى كثير مما أتت به من تفسيرات لشواهد التورية الواردة فى الكتاب ، نورد منها فيما يأتى بعض الأمثلة :

- إن الباحثة فى تحقيقها للكتاب لم تتعرض لأنواع التورية التى استقر عليها علماء البلاغة فى علم البديع .
- كما لم تتعرف فى كثير من الشواهد الواردة فى الكتاب على الألفاظ التى وقعت فيها التورية .
- كانت تكتفى بذكر معنى واحد للكلمة التى وقعت فيها التورية وتغفل ذكر المعنى الثانى وبخاصة المعنى البعيد (وهو المراد منه التورية) .
- لم تتمكن من معرفة مغزى الكثير من الألفاظ لاسيما الألفاظ التى ترتبط بالمصطلحات اللغوية ، والنحوية ، والخصائص الإعرابية من رفع ونصب وجر .
- لم تتوقف عند الشواهد التى وقعت فيها التورية وبها مصطلحات عروضية أو فقهية أو حتى التى ارتبطت بأسماء علماء وشخصيات مشرقية ، فعلى سبيل

---

(١) نافع : هو بن عبد الرحمن بن أبى نعيم الليثى المقرء المدنى ، وأحد الأعلام ... قرأ على طائفة من تابعى أهل المدينة (ت. ١٦٩هـ) ، انظر : معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار ، تأليف : الذهبى أبو عبد الله ، جـ١ / ص١٠٧ – ص١١١ ، تحقيق : د. بشار عواد معروف ، الطبعة الأولى

(٢) مالك : هو أحد الأئمة الأربعة أصحاب المذاهب المتبعة .. روى مالك عن غير واحد من التابعين (ت. ١٧٩هـ) وله خمس وثمانون سنة . انظر : ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ١٠ /ص١٧٤ ، مكتبة المعارف ، بيروت .

(٣) الشافعى : هو الإمام أبو عبد الله محمد إدريس الشافعى ، ولد بغزة وقيل بعسقلان (ت. ٢٠٤هـ) ، أحد الأئمة الأربعة من أصحاب المذاهب المتبعة ، انظر المصدر السابق نفسه : جـ١٠/ ص٢٥١ .

المثال نشير إلى الشاهد رقم (٢٩) الوارد فى الكتاب : ص ١٩٤ [١] ، يقول ابن خاتمة :

- يـــا مهـــديًا ريحـــانتين أنالتـــا ∴ بصـــرى وســـمعى بهجـــة ولســـانى
- يا مستدعيًا نظمى وما نظمى لما ∴ يُبـدى ولـو أنـى بـديع زمـانى
- إن كنـــت قـــد أهـــديتها روضـــا ∴ فـلا عجـبٌ جنـانٌ جـاء مـن رضـوان

فالتورية فى الأبيات جاءت فى البيتين الثانى والثالث ، فى قوله " بديع زمانى " ، وقوله " رضوان " .

فالباحثـة ترجمـت " بـديع زمـانى " إلـى الإسـبانية " فريـد عصـرى " *Extra Ordinario en mi Tiempo* ، وهى ترجمة صحيحة ودقيقة ؛ لكنها تحتاج إلى توضيح ، وكان يجب عليها أن تشير إلى أن فى البيت الثانى جاءت تورية فى قوله : " بديع زمانى " فالمعنى القريب " بديع الزمان الهمذانى " الكاتب صاحب المقامات المشهور وهو غير مقصود . والمعنى البعيد الذى يقصده الشاعر هو صديقه الكاتب المالقى المشهور الذى وصفه بأنه فريد عصره فى طريقة نظمه ، فالباحثة لم تشر إلى ذلك واكتفت بالإشارة إلى معنى الترجمة الحرفى دون توضيح أو تعليق .

كذلك الحال بالنسبة للتورية التى جاءت فى البيت الثالث ، وقد وقعت فى كلمة " رضوان " لم تذكر الباحثة أن هناك تورية جاءت فى هذه الكلمة ، وربما هذا نتج عن كونها لم تهتد إلى معرفة كلمة رضوان فى الثقافة الإسلامية وهى تعنى الملاك خازن الجنة ، فالمعنى القريب هو رضوان حارس الجنة ، والمعنى البعيد الذى يقصده الشاعر هو صديقه رضوان الكاتب المالقى المشهور .

ونشير إلى مثال آخر ورد فى الشاهد رقم (١١) ص ١٦٨ . [٢]

- يـا مـن يقابـل نظمـه مـاذا دعـا ∴ عَيْنَ الخليـل إلـى صِحاح الجَـوْهري

فالتورية فى البيت فى " عين الخليل " و " صحاح الجوهرى " .

نجـد الباحثـة ترجمـت " عـين الخليـل " إلـى " عـين المحبـوب " وهـى فـى الإسـبانية *ojo del enamorado* كما ترجمت " صحاح الجوهرى " إلى " الجوهر أو اللؤلؤ الحقيقى " وهى فى الإسبانية *perlas perdaderas* ، وهى ترجمة صحيحة ودقيقة ، ولكن تحتاج إلى توضيح ، كان يجب على الباحثة أن تشير إلى أن الشاعر استخدم التورية فى " عين الخليل " وفى " صحاح الجوهرى " ، والتورية لفظ يُطلق يراد به معنيان ، الأول المعنى القريب وهو غير مقصود ، وهو معجم العين للخليل بن أحمد الفراهيدى ، والثانى معجم الصحاح للجوهرى . أما المعنى البعيد الذى قصده الشاعر هو عين المحب ، وأسنانه الصحيحة التى تشبه الجوهر .

---

(١) انظر : رانق التحلية فى فانق التورية : تحقيق : د. سوليداد خيبرت ، مجلة المعهد المصرى للدراسات العربية والإسلامية بمدريد ، العدد الثانى والعشرين ، الصفحات من ص١٢٧ - ص٢٠٢ ، مدريد ، ١٩٨٣م .

(٢) انظر : رانق التحلية فى فانق التورية : تحقيق : د. سوليداد خيبرت ، مجلة المعهد المصرى للدراسات العربية والإسلامية بمدريد ، العدد الثانى والعشرين ، الصفحات من ص١٢٧ - ص٢٠٢ ، مدريد ، ١٩٨٣م .

وكذلك فعلت الباحثة عند تفسيرها لكثير من شواهد التورية التى وردت فى الكتاب لهذا جاء التحقيق رديئًا ومليئًا بالأخطاء ، لذا رأيت أن أقوم بإعادة تحقيق الكتاب لتصحيح ما وقعت فيه الباحثة من أخطاء فى وقت آخر يتسع لذلك .

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر :

١- ابن الأثير : جوهر الكنز ، تحقيق : د. محمد زغلول سلام ، منشأة المعارف ، الإسكندرية .

٢- أحمد الهاشمى : جواهر البلاغة فى المعانى والبيان والبديع ، دار إحياء التراث العربى ، بيروت .

٣- ابن الأحمر :
- نثير فرائد الجُمان فى شعر من نظمنى وإياه ، تحقيق : د. محمد رضوان الداية ، الطبعة الثانية ، مؤسسة الرسالة .
- نثير فرائد الجُمان فى نظم الزمان ، تحقيق : د. محمد رضوان الداية ، طبعة دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٦٥م .

٤- البغدادى : خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب ، تحقيق : عبد السلام هارون ، دار الكتاب العربى ، القاهرة ، ١٩٦٩م .

٥- التنبكتى : نيل الابتهاج بتطريز الديباج ، القاهرة ، ١٣٥٠هـ .

٦- الجزيرى : غاية النهاية فى طبقات القراء ، القاهرة ، ١٩٣٢م .

٧- ابن خاتمة الأنصارى : ديوان ابن خاتمة الأنصارى ، ورسالة الفصل العادل بين الرقيب والواشى والعاذل ، تحقيق : د. محمد رضوان الداية ، دار الفكر المعاصر ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٤م .

٨- ابن الخطيب :
- الإحاطة فى أخبار غرناطة ، تحقيق : د. محمد عبد الله عنان ، نشر مكتبة الخانجى ، القاهرة ، ١٩٥٥م .
- أعمال الأعلام ، تحقيق : ل. بروفنسال ، طبعة بيروت ، دار المكشوف .
- ديوان الصيب والجهام والماضى الكهام ، تحقيق : محمد الشريف قاهر ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، ١٩٧٣م .
- الكتيبة الكامنة فى من لقيناه بالأندلس من شعراء المئة الثامنة ، دار الثقافة ، طبعة إحاسن عباس ، بيروت .
- كناسة الدكان بعد انتقال السكان ، تحقيق : د. محمد كمال شبانة ، مطبوعات وزارة الثقافة ، القاهرة ، ١٩٦٦م .
- اللمحة البدرية فى الدولة النصرية ، صححه ووضع فهارسه : محب الدين الخطيب ، القاهرة ، ١٣٤٧هـ .
- مشاهدات لسان الدين بن الخطيب فى بلاد المغرب ، نشرها : د. أحمد مختار العبادى ، الإسكندرية ، ١٩٥٨م .
- نظم الحلل فى نظم الدول ، طبعة تونس ، ١٣١٦هـ .
- نفاضة الجراب فى علالة الاغتراب ، تحقيق : د. أحمد مختار العبادى ، القاهرة ، بدون تاريخ .

٩- ابن خلدون : التعريف بابن خلدون ورحلته شرقًا وغربًا ، تحقيق : محمد بن تاويت ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٥١م .

١٠- الذهبى : معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار ، تحقيق : بشار عواد معروف ، الطبعة الأولى .
١١- الرندى : الوافى فى نظم القوافى ، مخطوطة بمكتبة أحمد تيمور ، رقم ٦٠٣ .
١٢- الزركلى : كتاب الأعلام ، مطبعة المثنى ، بيروت ، ١٩٧٩م .
١٣- ابن سعيد : المغرب فى حُلى المغرب ، (جـ١ – ٢) ، تحقيق : د. شوقى ضيف ، طبعة دار المعارف ، مصر .
١٤- السكاكى : مفتاح العلوم ، تحقيق : نعيم زرزور ، دار الكتب العلمية ، بيروت .
١٥- الصفدى : الختام عن التورية والاستخدام ، دراسة وتحقيق : د. المحمدى عبد العزيز الحناوى ، الطبعة الأولى ، دار الطبعة المحمدية ، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٦م .
١٦- ابن القاضى : درة الحجال فى غرة أسماء الرجال ، طبعة غلوش ، الرباط ، ١٩٣٤م .
١٧- القزوينى : الإيضاح فى علوم البلاغة ، تحقيق : د. محمد السعدى فرهود .
١٨- ابن كثير : البداية والنهاية ، مكتبة المعارف ، بيروت .
١٩- الكلاعى : أحكام صنعة الكلام ، تحقيق : د. محمد رضوان الداية ، دار الثقافة ، بيروت .
٢٠- المقرّى :
– أزهار الرياض فى أخبار القاضى عياض ، طبعة القاهرة ، ١٣٥٨هـ/ ١٩٣٩م .
– نفح الطيب فى غصن الأندلس الرطيب ، تحقيق : د. إحسان عباس ، طبعة بيروت ، ١٩٦٨م .
٢١- ابن منظور : لسان العرب ، دار الحديث ، القاهرة ، ٢٠٠٣م .
٢٢- ابن منقذ : البديع فى نقد الشعر ، تحقيق : د. أحمد أحمد بدوى ، و د. حامد عبد المجيد ، القاهر ، ١٩٦٠م .
٢٣- الناصرى السلاوى : الاستقصاء لأخبار المغرب الأقصى ، الدار البيضاء ، المغرب ، ١٩٥٤م .

ثانياً : المراجع :

٢٤- د. أحمد مختار العبادى : مملكة غرناطة فى عصر محمد الخامس ، مدريد ، ١٩٧٣م .
٢٥- د. أحمد مطلوب : فنون بلاغية البيان – البديع ، الطبعة الأولى ، دار البحوث العلمية ، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م .
٢٦- د. الأزهر الزناد : دروس فى البلاغة العربية نحو رؤية جديدة ، الطبعة الأولى ، المركز الثقافى العربى للنشر والتوزيع ، الدار البيضاء ، بيروت ، ١٩٩٢م .
٢٧- د. أسامة البحيرى : تحولات البنية فى البلاغة العربية ، دار الحضارة للطبع والنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٠م .
٢٨- د. الطاهر أحمد مكى :

- الأدب الأندلسى من منظور إسبانى ، طبعة مكتبة الآداب ، القاهرة ، ١٩٩٠م .
- دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة ، الطبعة الثانية ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ١٩٧٧م .
٢٩- د. عبد العال سالم مكرم : تطبيقات نحوية وبلاغية ، دار البحوث العلمية .
٣٠- د. عبد العزيز قليقلة : البلاغة الاصطلاحية ، دار الفكر العربى ، الطبعة الثانية ، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م .
٣١- د. عبد القادر حسين : فن البديع ، الطبعة الأولى ، دار الشروق ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م .
٣٢- د. محمد عبد الله عنان : نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين ، مطبعة مصر ، ١٩٤٩م .

ثالثًا :الدوريات :
٣٣- مجلة الأندلس : العدد (٢٧) ، مدريد ، ١٩٧٢م .
٣٤- مجلة كلية الآداب : العدد (١٦) ، قنا ، مصر ، ٢٠٠٥م .
٣٥- مجلة المعهد المصرى للدراسات العربية والإسلامية ، العدد (٢٢) ، مدريد ، ١٩٨٣م .

رابعًا : الرسائل :
٣٦- عبد الله عووضة حمور : الصورة الشعرية عند المعرى ، دراسة نقدية قوامها الإحصاء والتحليل ، ماجستير ، كلية دار العلوم ، القاهرة ، ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م .

خامساً : المراجع الأجنبية :
37- Al–Andalus: Revista de las Escuelas de estudios arabes de Madrid Y Granada, Volumen XVIII, Madrid – Granada, 1953.
38- Celia del Moral Molina: Tawriyas en Reino Nazari, Miscelanea de Estudios Arabes Y Hebericos, Universidad de Granada, Volumen XXXIV – XXXV, 1985-1986.
39- Gayengos, The History of the Mohammedan Dynasties in Spain.
40- Hesperis, Annee 1931, Tome XLL.
41- Pons Boigues: Ensayo Bio- Bibliogra Foco Sobre los Historia Dores Y Geograficos Arabigo – Españoles, Madrid, 1989.
42- Rachel Arvie España Muslommana en la epoca Nasiri (1232 – 1492), Paris, 1973.
43- Soledad Gibert Fenech:
- *Diwan de Ibn Jatima de Al meria, (Poesia arabigoandluza del siglo XIV), Publicaciones del Departamento de Arabe e Islam, Barcelona, 1975.*
- *Poetas arabes de almeria (S. X- XIV), Almeria,1987.*
- *Sobre los: Enemigos de los Amantes, Al-Andalus de Madrid Y Granada V. XVIII, 1953.*